واليك اسماء الكهنة السريان . الخوري رافائيل بردعاني . القس بطرس عيسى . القس حنا طبي . القس متى ملاش . القس يوسف معمارباشي . وكان هذا قد شخص الى ماردين يوم كان المسيحيون مسجونين في ٧ حزيران فاستلمه بواب البلد واستاقه توًّا الى السجن ثم سار مع القافلة الاولى وقتل

اما القس متى خريمو . والقس لويس منصوراتي . والقس يوسف ربابي فنجوا من القتل باعجوبة وعادوا الى ماردين . اما القس حنا بنابيلي فأصيب برصاصة في فخذه اضطر لذلك السبب ان يستمر في دياربكر حتى سلخ سنة ١٩١٥ فيمم ماردين وظل الى تموز ١٩١٦ فانتقل الى جوار ربه

اما شمامسة السريان الهفوذياقونيون فهم عبد المسيح نصري حال . يوسف ارملة . رزق‌الله عبد الصمد . فيلبس تبسي . منصور ايغو . فرنسيس شمعي . نعوم اعرج . ملكي ابن الخوري ابرهيم معمارباشي . جرجس هافوري قندلفت [وافه] الكنيسة . يوسف بوصيك . جرجس مكا

الجماعة

حبيب ترزي دي جروه . اسكندر نصري حال واخوه فيلبس . يوسف جرباقة وانجاله ابرهيم وفرجو وجرجس . اسكندر جرباقة واخوه حنا . اسكندر سيدي . حبيب معمارباشي وابن عمه رزق‌الله . فرنسيس تبسي . رفائيل كالو واخوه ميخائيل . جرجس حنا جتي . حبيب ايغو . فرجو مقدسي نعوم . المعلم رزق‌الله سلمو . سعيد قره كله . حنا بجدايو . فرنسيس دقاق وابنه يوسف واخوه رزق‌الله

اسكندر دقاق ويوسف والياس اخواه . سعيد دقاق . وفرنسيس بن جرجس دقاق . عزيز شاميه . رزق‌الله آحو . ويوسف آحو . حنا عبد الصمد . وسعيد عبد الصمد . جبرائيل قاووغ واخوه جرجس . يوسف باهو المختار . يوسف حنا باهو . فرجو بردعاني . مالي صوفيه سعيد اسطنبولي . يوسف مغزل . رزق‌الله انطي . فرنسيس ايغو وبولس ايغو . الياس طبي واخوه جرجس . ملكي مال‌الله . اسكندر جرجس هيلي . فرنسيس منشي . فتوح ايغو . حبيب نصري ايغو جليل كاتو واخوه يوسف . سعيد شاعو . رزق‌الله حنا عبدو . منصور سعيد كدا . رزق‌الله بوصيك . حنا بجي . حنا سلمو . اسكندر حنا قرطي . جرجس ايليا مورو . الياس يوحنا . يوسف مال‌الله . اسكندر مرزا . اغناطيوس مرزا . بطرس ملكي داودو . جبرائيل صقال . فرنسيس قواق . يوسف بب . الياس خابوط . جرجس عيسى الكربوراني . حبيب حلاق . عمسيح جرجس عبد النور . سليم بجديو . نعوم شموني

اما بطرس عجمو فلما كان في السجن حرضه اليعاقبة وحثوه ليخرج معهم يوم اطلقتهم الحكومة فلم يرض فسار مع اصحاب القافلة الثانية وقتل مع من قتل في شيخان وراح ينال الجزاء المعدّ للمجاهدين

فهؤلاء والذين ذكرنا سابقاً قد قتلوا في سبيل الايمان الكاثليكي المقدس من دون جرم البتة . اما الذين اطلقوهم من الحبس من السريان والكلدان وغيرهم فقد توفي اغلبهم لسبب المخاوف والعذابات التي اصابتهم في ذهابهم وايابهم وسجنهم

الفصل التاسع عشر

الى فرنسا امّ الخير والمعروف
او نكبات راهبات الفرنسيس ورهبانهم

ابى الاتراك الا ان يفوقوا سهم حنقهم وكيدهم ويصوبوه نحو فرنسا بنت الكنيسة البكر المحبوبة ويفرغوا في رجالها الكرام وجميع المنتمين اليها سهم الزعاف ليمحقوا اسمها وذكرها ويستحوذوا على اراضيها واملاكها . غفلوا عما سبق لها قبلهم من العوارف الشتى والمبرات الكثيرة ونسوا ان انور إمامهم وقائدهم يوم حصل في الضيق لم يجد الفرج الا في فرنسا . فمنها استقرض المبالغ الطائلة واوفدها الى المانيا في استحضار الالات والادوات لمحاربة من اصطنع اليه المعروف والاحسان . وفات الاتراك ان الفرنسيس محتصنون باحرز المعاقل لا ينالهم الخصم الالد مهما بالغ في الحيل والجد والجهد بل لا يتيسر له ان يزعزعهم او يزحزحهم لان صروحهم متينة مشيدة على دعامة وطيدة راكزة على صخرة ثابتة . فاصبح مثلهم مثل ريح لاقت اعصاراً فردوا بافوق ناصل ورجع كيدهم في نحرهم

على اننا رمنا ان نورد للقراء في فصل خصوصي كل ما عرض المنتمين الى فرنسا العزيزة في مدينة ماردين مما يمس حقوقها فان الدواهي انفجرت عليهم مذ خامس كانون الاول ١٩١٤ وتتابعت عليهم ضروب الارزاء والنوائب واليك تفصيل ذلك نقلا عن دفتر الاب ليوزد النبيل

صباح اليوم المرقوم كبس كنيسة الكبوشيين اثنا عشر جندياً

وجزموا بان يطلعهم الابوان عن اسميهم واسماء الراهبات معاً ويفيداهم عن وطن كل منهم . فقيل لهم ان الاب دانيال الشيخ الوقور ايطالي النحلة وان الاب ليوزد لبناني الاصل ماروني المحتد وكليهما يمثلان دولة فرنسا ويخدمان ديرها طبقاً لامتيازات الدول . وقالا لهم ان من الراهبات ثلاثاً هن عثمانيات مولودات في ماردين وهن باسيفيك واسومبسيون واغاثا والبقية مولودات في فرنسا لائذات بحماها متفيئات بوريف ظلها

وعند ذاك ركب الجنودَ شيطان السخط والحرد فنهضوا من فورهم وفتشوا الغرف وبحثوا عما فيها ثم ختموها كلها واخرجوا الراهبين واوصدوا الابواب وقصدوا تواً دير الراهبات وعاقوا يعربدون عليهن ويسمعونهن كلاماً جفيّاً غليظاً خدش اسماعهن الطاهرة

وانا ليعرونا الحياء والخجل من ايراد ما قاله وافتعله اولئك الاجلاف في دير الراهبات الحواصن فانهم عدا ما انحشوا في الكلام تصرفوا في الامتعة كما طاب لاهوائهم بل ضربوهن ودفعوهن الى الارض وامروهن امراً فصلاً بالتنحي عن غرفهن والخروج من ديرهن . ثم اغلقوا الحجر وختموا الابواب فتجمهر اذ ذاك الرعاع يتحينون الوقت المناسب ليفوزوا من دون تعب بالغنائم والمكاسب

اما الاب ليوزد فلما راى ما اجرى هولاء العتاة انحدر من ساعته الى الكنيسة وفتح بيت القربان واخرج الكاس المقدسة باحترام ولفها بمنديل نقي وضمها الى صدره وسار بها الى دار الخواجا حنا مركيزي الارمني ورجع حالاً الى الدير يريد البقاء فيه ليلته . فقال له احد الجنود لا محيص لك من مغادرة الدير والا فليس لك

ان ترقد الا في بيت المونة . وما مضى من الليل ثلثه حتى اقبل محمد كبوشو الخبيث الذائع صيت فظاظته الشائع خبر غلاظته وجمع الفرش كلها وسار بها الى دار الحكومة واخرج الاب ليوزد خارجاً فحار في امره وظل يرعى النجوم حتى الفجر . وصباح الاحد سادس كانون الاول نقل كاس القربان الى كنيسة السريان واقام فيها الذبيحة الالهية

واقبل في ذلك اليوم جماعة من رجال الحكومة فاستدعوا الابوين وامروهما باستخراج ما في الدير من الاسلحة والمدافع مما لا اثر له. وكانت تلك دسيسة ومكيدة اختلقها عبد الرحمان القواس صاحب الرحى انتقاماً من الكبوشيين . فجال الجنود في الدير متبخترين وبحثوا عما زعموا مدققين ولم يذروا موضعاً الا دخلوه ولا ثقباً الا وسعوه وافضى بهم الامر الى انزال اشخاص الى البئر عساهم يجدون فيها اسلحة فعادوا بالخيبة

ورام الاب ليوزد مساء ذلك اليوم ان يبيت ليلته في الدير فلم يأذن له الجنود فقصد دار الخواجا حنا مركيزي ولزمها اربع ليال لا يخرج منها ابداً . وظل الخصوم يفتشون وينقرون وينقبون من سابع كانون الاول الى العاشر منه: يفتحون الغرف ويبعثرون الكتب والاوراق ويعيثون في الامتعة والاغراض ويتجنشون على ما طاب لهم دون معارض لا يراقبون الله ولا يستحون من عبد. ثم قصدوا دير الراهبات وفتشوا الحجر اجمع وفتحوا الصناديق واستبحثوا عما فيها وتلعبوا بها ثم كوموها على بعضها واغلقوا الابواب وختموها وحشروا الراهبات في غرفة واحدة وانكفتوا الى منازلهم يترقبون الفرصة

للاستيلاء على المال والدار كليهما

فضاق ذرع الابوين وعميت عليهما طرق التملص فكتبا الى اديب نائب المتصرف في ان يرخص لهما ان يُعدا الزاد للرواهب ويسعيا في امر سفرهن فاضرب عن الجواب واتخذ الطلب لغواً . فكتبا في ذلك الشأن الى القومسير ايضاً فلم يجبهما. بل اضافوا الى ذلك انهم اقاموا خفرة على بابي الديرين لا يدعون كائناً من كان ان يدخل او يخرج ووضعوا خفرا ايضاً على بابي دار الخواجا مركيزي

وفي ثامن كانون الاول امر اديب الوكيل ففتح الابوان كنيستهما واقاما الفروض الدينية وظل الجنود يوافون الى الدير كل أصبوحة وامسية ياكلون ويشربون على كيس الرهبان . على ان الذين كانوا فيما سلف يودون الرهبان ويجلونهم اخلقت خضراء مودتهم فقلبوا لهم ظهر المجن وتغيروا عليهم وعلقوا يحفرون لهم الحفائر

وعاشر كانون الاول استكرى الراهبات اربع عجلات بثمانين مجيدياً وركبن الى دياربكر وفي غيبوبتهن شخص القومسير في جماعة من البوليس الى الدير وفتحوا الصناديق والخزانات والصرر والاسفاط واختلسوا ما طاب لهم . واجتمع وتقنذر لفيف من الرعاع على الابواب ينادون ويقولون الان تحوّل الدير جامعاً والمدرسة مكتباً. بل ان امراة مسلمة اقبلت حاملة مكنستها تقول اين الجامع الجديد الذي ضبطناه من فرنسا فقد نذرت ان اكنسه بيدي. فصاح بها فرج‌الله كسبو معلم المدرسة وزبرها وقال اصمتي يا سفيهة وارجعي الى بيتك . وفي ذلك اليوم عينه مرّ بتلك الجادة جرجس مطران

السريان اليعاقبة يصحبه الراهب يشوع فبادر الاعلاج وخطفوا قبعتيهما والقوها الى الارض فزجرهم المطران وقال لهم او ظننتم اننا فرنساويون فعاملتمونا هذه المعاملة · كلا · بل اننا عثمانيون · فعلامَ يا ترى تحتقرون من ينتمي الى تركيا ويتباهى بالدولة فسكت اولئك الصبيان وردوا لهما القبعتين

اما الراهبات فلما وصلن الى دياربكر بلغن الوالي ان ثلاثاً منهن عثمانيات فاصدر الامر برجوعهن الى ديرهن · فقفلن راجعات ووصلن الى ماردين في ٢٤ كانون الاول ليلة عيد الميلاد · وتبادر الى الظن انهن يستلمن الدير بما فيه · غير انه خاب الامل فلزمن دار الخواجا مركيزي اربعة اشهر

وفي ٧ كانون الثاني ١٩١٥ نادى المنادي في الشوارع ان اغراض الرواهب تعرض غدا للبيع فمن شاء مشترى شيء فليحضر · فاحتشد في الغد رجال المسلمين ونساؤهم وحضر معهم نفر من النصارى ولاسيما اليعاقبة وما دخلوا الدير حتى بعثوا عجيجهم وضجيجهم وطفقوا يزأطون ويهرجون وفكوا الختوم وباعوا الاغراض كلها بالمزاد عدا الصور والتماثيل مما لا يفيدهم · ثم اخرجوا الحلل الكهنوتية وصحنوها باقدامهم النجسة بعدما انتقوا منها ما يصلح لكسوتهم · وافرزوا الشموع والقناديل والشماعد فاخذوها الى الجامع الكبير وظلوا يبيعون ويشترون مدة ثلاثة ايام حتى امسى الدير خاوياً خالياً كأن البناء قد خرج منه جديداً

ومذ عاشر كانون الثاني خصصوا دير الرواهب بالجنود فكان العسكر منذاك يجتمعون في ذلك المعهد المقدس ويسرفون الليالي في

الاكل والشرب والسكر وسائر انواع الخلاعة والملاهي والبطر مما حرمه الله تعالى · وامروا المؤذن ان يؤذّن كالعادة على سطح الدير في الاوقات الخمسة ورفعوا الناقوس وحاولوا ان يكسروه الا ان احد المسيحيين تصدى لذلك فصرفهم عن سوء نيتهم

وتاسع شباط نقلت الكتب والكراسي وجميع ما تبقى من الامتعة الى الجامع وشغل الغرف بعض الموظفين ما عدا غرفتين انعموا بالواحدة على الاب دانيال وبالاخرى على الاب ليونرد

ويوم الخميس ١١ شباط اقبل خمسة وخمسون من طلبة المسلمين حاملين الرايات والبنود منادين بالهيللة والحيعلة ودخلوا ساحة الكنيسة وسكنوا في المدرسة · واذاعوا منذ ذاك ان الكنيسة وسائر مشتملاتها ستغدو مركزاً للحكومة والتلغراف معاً · وبدأوا يختلفون الى الدير صباح مساء · واحتووا بالمرّة على كل ما فيه كما يقال من النحاس الى الرصاص دع الذهب والفضة والامتعة والاثاث · من جملتها اشياء كثيرة كانت للمسيحيين المنتمين الى الكبوشيين فراحت صدقة راسهم وامست طعمة للحكومة واعوانها · نذكر من ذلك طنفسة كبيرة عجمية بلغت قيمتها نحو ثلاثين ليرة ذهباً كانت للخواجا عبد المسيح بطيخه · وطنافس غيرها مبلغها الفا غرش كانت لفرنسيس توماس · وكان للخواجا الياس بعوصى طنافس بمبلغ الفي غرش وليوسف آحو جاود بالفي غرش · وللمعلم رزق الله سامو ثلاثة اكيال حنطة · ولقرينة يوسف مغزل صف برباعيه الذهبية ولآليه بالفي غرش · فهذه الاغراض برمتها استولت عليها الحكومة وتصرفت بها كما ارادت · ففرض الابوان الامر على

حاكم البلد فوعدهما مواعد عرقوب ولم يردد لهما ما طلبا . وعلاوة على ما اوردنا انهت الحكومة الى مستاجري دكاكين الكبوشيين ان يدفعوا الاجرة لها لا الكبوشيين . فحار الابوان في امرهما وغابت عليهما طرق المعيشة والنجاة . واتصل الخوف بالكاثليكيين الى حد انهم لم يعودوا يجسرون ان يفتقدوا الابوين ويزوروهما

على ان اعداء الدين لم يقفوا عند ذلك الحد من التعدي والجور والعسف بل تجاسروا فالقوا القبض على الاب ليونزد في خامس حزيران ١٩١٥ واستاقوه الى السجن حيث كان السيد اغناطيوس وجماعته على ما وصفنا . ولشد ما جنوا على الاب العزيز ونكلوا به فانه ما كاد يصل الى باب السجن حتى استلمه البواب بلهوجة ولطمه بشراسة واجتمع احزاب الشر واحاطوا بالاب الوديع وطفقوا يصفعونه ويرفسونه وينتفون لحيته ويقولون ادعُ فرنسا لتبادر وتنقذك . ثم نكسوه على راسه نحو ساعتين وتكالبوا على ضربه الضرب الوجيعَ واقتلعوا اظفار يديه ورجليه معاً ثم دحرجوه في الدرج فاغمي عليه [1] والله يعلم ما ناله من تباريح الالام والوان العذاب لما ساقوه مع القافلة الاولى في عاشر حزيران حتى فتكوا به ولفظ روحه الطاهرة بيد خالقها

افتحي اذنيك يا فرنسا المحبوبة يا ام المسيحيين ولاسيا الكاثليكيين واصغي الى ما جرى بمن يتباهى بك وينتمي اليك

اما الاب دانيال الشيخ الوقور فلم يعد عليه الخصوم اذ ذاك

(١) هنا ص ١٦٤ و ١٦٩

يداً اثيمة . فظل منزوياً في بيت مجاور للكنيسة لم يرقه الخروج منه اصلاً حتى اذا كان ١٧ تموز ١٩١٥ قبض عليه وألقي في الحبس وضيق عليه جداً وابتز منه ممدوح واصحابه ثلاثاً وعشرين ليرة عالوه بالاطلاق على ان يدفع مائة وخمسين ليرة علاوة . ذلك لتكون بمثابة مكافاة لهم عن سوقهم رفيقه الاب ليونزد وقتلهم اياه شهيداً . يا يهوذا الخائن ماذا صنعت بالثلاثين من الفضة . قل لي أما تندمت ورددتها وقلت اني خطئتُ اذ اسلمتُ دماً زكياً . بلى . ثم ماذا . . علقت نفسك وانشققت من وسطك واندلقت امعاؤك ومت اقبح ميتة ذلك عقوبة خيانتك

ثم ان الاب دانيال دفع ١٥٠ ليرة ايضاً ثمن دم القتيل الزكي فاطلق سبيله في ثالث آب بعد ما قضى في السجن سبعة عشر يوماً . ولبث منزوياً في بيته حتى ١٨ تشرين الثاني ١٩١٦ فسافر الى حلب فقونيه صحبة الاباء الدومنكيين . اما ما جرى في الديرين والكنيسة وما حدث من الخراب فكثيرٌ فانهم هدوا الحائط الجنوبي من راسه الى راسه واضافوا ساحة الدير الى الطريق العمومية وجعلوا الكنيسة اهراء وخصصوا غرف كلا الديرين بماوى العسكر المرضى حتى اليوم . على انهم اثناء قيامتهم لم يخطر ببالهم ان ليالي الحروب سينقضي نحبها وينطفي لهيبها وان كل الدسائس ستعان جهرة لتجزى كل نفس بما عملت . وان سوء التدبير اخيراً سيغدو سبباً للخراب والتدمير

الفصل العشرون

اغلاق الكنائس والمعابد وتدنيسها

دُمرت المعابد واخربت الكنائس والغيت الذبائح وبطلت الصلوات والطقوس . ولزم بقية المسيحيين بيوتهم . وقامت رجاسة الخراب في جناح الهياكل المقدسة [دانيال ٩] وحدث ضنك شديد وخوف عظيم استولى على الشيوخ والكهول مع الشبان والحبالى والمرضعات حتى كادت تزهق الارواح

ذلك لان اعوان الشر والنفاق بسطوا الامال في الاستيلاء على الكنائس والاديار فطفقوا بادئ بدء يهجمون غرف الاساقفة وحجر الكهنة يفتشون عما فيها فكبسوا كنيسة السريان في ٢ ايار فرأوا العملة يبنون مذبحاً حديثاً فما كان منهم الا ان ضجوا وعجوا وامروا بتقويضه والحفر تحته وما حوله لينبشوا الاسلحة والمدافع فلم يعثروا على شيء . فرجعوا مأيوسين فاعترضهم في الطريق حمو البقال بياع الكلس وقال لهم . اني انا عارف بمخابئ الاسلحة واكد محمود عبدالو اللئيم قوله وقال اني انا بنفسي قد بعت بندقيتين كبيرتين من المطران حنا معمارباشي وحلف لهم بالطلاق الثلاث ليويد دعواه الكاذبة . فعادوا الى الكنيسة حامضي الفؤاد فاسدي النيات وامروا بنبش ضريح السيد يوحنا معمارباشي ففتشه القومسير تفتيشاً عميقاً فلم يجد شيئاً فعادوا مخذولين[1]

(١) هنا ص ١٣٩ و ١٤٠

ثم ساروا الى بيعة الارمن الكبرى يوم كان راعيها السيد اغناطيوس مسجوناً يتقدمهم اديب وكيل المتصرف وممدوح المسخوط واستحضروا اساتذة العملة كرافائيل كالو واولي (ايليا) كيسو وجبرائيل نهبيه وهددوهم واوسعوهم ضرباً وشتماً وقالوا لهم استخرجوا المدافع والا قتلناكم . فقال لهم الاستاذ لولي : استحضروا كمية وافرة من البارود وهدوا البيعة من اساسها وفتشوها من راسها الى راسها فان صادفتم شيئاً قتلتموني وقتلتم عامة الارمن والا فما بالكم تتقولون الاباطيل وتدعون دعاوي لا اثر لها ولا صحة . فسخط عليه ممدوح وطفق يضربه اعنف الضرب حتى جرت الدماء من وجهه واذنيه . ثم ضرب رفيقه رافائيل ايضا فقال انا سرياني لا خلطة لي مع الارمن في هذا الامر . اما جبرائيل نهبيه فلما انكر عليهم توهمهم قام اليه ممدوح وسطحه على الرصيف ورفسه وصفعه واوسعه ضربا وجيعا جداً حتى امست لحماته سوداء كالنيل واضطر الجند ان يحملوه الى السجن على الاخشاب

ولما لم يبرد الاعداء غليلهم بوجود شيء مما توهموا راح ممدوح الوغد واصحابه الخالعو العذار كهرون وصالح وفواد وحيدر وغيرهم يستعملون عملاً افظع واشنع . على انهم في سابع حزيران اي يوم كان المطران والجماعة مسجونين استحضروا ليلاً الى الكنيسة المذكورة ابنة لولي مخو المشهورة . فاوقدوا المصابيح واضطروا المراة ان ترقص . وامروا الوافه في احضار زجاجات الخمر فجلسوا يتعاطون اقداح الطرب ويشربون كاس بابل حتى قعرها . فكان مثلهم مثل بالطشاصر لما احضر آنية القدس وشرب بها هو واقطابه وحواشيه

وبعد ان لعبت الخمر في ادمغتهم النجسة وانجزوا شهوات قلبهم الرجسة عادوا الى منازلهم . ولكنهم لم يملوا من البحث والتنقير اذ كانوا كمن قلعت عينه فلا يزال يحكها حتى يعمي الحك سيما في ذهابها

وبعد سوق القافلة الثانية سار هولاء الخالعون الى بيعة مار يوسف ايضا وافتعلوا الفبائح والشنائع مما لا يسمح لنا المقام ان نسرده على مسامع قرائنا لئلا تخدش اذهانهم الطاهرة

اما معبد الراهبات الفرنسيات فكان امر افتعال القبائح فيه مشهوراً معروفا منذ غادرته صواحبه الفاضلات التقيات . ذلك ان الانذال جعلوا بعض غرفه للعذابات وافرزوا المعبد خاصة لافاعيل الخلاعات حتى ان علي جاويش واصحابه كانوا يجمعون زهور الذبيح ويلطخونها على صدور العواهر ويضطرونهن الى الرقص الفاحش امامهم جهراً

وما كفاهم ذلك بل تجثوا على الكؤوس والاطباق الذهبية والفضية وتلففوا على الصلبان والدراجة والحلل والتيجان والخوذ والقناديل والذخائر مما لا ثمن له . واستحلوا الطنافس والافرشة فباعوا ما باعوا واختصوا بالبقية

ولما ساقوا النصارى وخلا لهم الجو وانبسطت امامهم الفلبة والانتصار انتشطوا لافراغ بقية الكنائس وجعلوا فيها الاسلحة والمؤن والعسكر وعاثوا فيها كما ارادوا وتحامقوا في تخريبها وتدميرها . من ذلك انهم اخرجوا الرهبان الافراميين من ديرهم وجعلوه مستشفى الى اليوم وتصرفوا به حتى اخلولقت غرفه وتصدعت أبنيته .

واخلوا كنيسة السريان الكبرى مدة سبعة شهور وجعلوها مخزنا للاسلحة والمؤن وابطلوا اقامة الصلوات فيها والغوا الذبائح ونسخوا قرع الاجراس . ثم نقلوا الذخائر والاسلحة الى بيعة الكلدان وجعلوا كنيسة الارمن ميتما وكنيستهم الاخرى مستشفى . اما كنيسة الكبوشيين فما برحت حتى اليوم اهراء ومستشفى معا

ولما شخص الالمان الى البلد استبشرنا خيرا وغلب على ظننا انهم يلتهفون علينا ويفرجون الضيم عنا ويامرون بتخلية كنائسنا واديرتنا . غير انهم لم ينفعونا بنافعة قطعياً بل طووا الكشح عن محاماتنا واسترجاع حقوقنا ودرء المخاشي والمخاوف عنا فكنا وقتئذ نتململ على فراش الاكدار ونتحسى كاس المرائر مصطبرين على كوارث الزمان الخؤون نستنجد الله ان يقشع عنا غياهب الاستبداد وياتي بنا الى فجر الامان والسلام . وقد كنا نعرف حق المعرفة ان لا بد ان يوافي يوم تُصالح فيه الخرائب وترمم الدوارس ويمسي اعداء الانسانية والدين مخذولين ياكلون ايديهم نادمين على ما فرّطوا . اسمعوا يا هولاء وعوا فان لكم اليوم قصفاً وغداً خسفاً . لكم اليوم خفضاً وصفاء وخمرا وهناء . وغدا قلقاً وكدراً وشقاء وعناء ما دام الله الاهاً

الفصل الحادي والعشرون

الارمن الذين جحدوا ايمانهم

يشق علينا جداً ان نسرد في هذا الفصل اسماء الارمن الكاثليكيين الذين لشديد رعبهم باعوا دينهم بدنياهم . فخافوا

لهم ولاعقابهم سوء الذكر . بلى انا نعرف ان ذالك جبر واكراه وان دينهم في صدرهم حتى الوت . غير انهم اذ اخطروا ببالهم قول يسوع فاديهم "من انكرني قدام الناس انكرته قدام ابي الذي في السموات" استبشعوا عملهم واستشنعوه وقضوا على انفسهم بالشرود عن الطريق المستقيم والحرمان من فوائد سر التجسد وسائر اسرار الكنيسة المقدسة امهم التي ارضعتهم لبان التعاليم الحقة واجزلت لهم المنافع الجمة . وعلمتهم ذات الرار انهم ما خلقوا ليتمتعوا بملذات الحياة الدنيا واطايبها بل ليسعوا جهدهم في منال الغبطة الابدية . فما كان ضرهم لو باؤا بدماء اعناقهم حبا بيسوع ربهم اسوة بأئمتهم واخوتهم وعشيرتهم . اما طرحوا نفوسهم بعملهم المقوت في مدارج الملكات واصبحوا عثرة لسائر المسيحيين . بلى ولا سبيل لهم الى انكار ذالك لانهم تعمموا بالعمائم البيضا وحضروا في الجوامع والمساجد وتشهدوا وكبروا وخلفوا لهم سبة لا تمحي من صفحة حياتهم الاهم الا بسكب الدموع الغزيرة والتوبة النصوح ما دام فيهم رمق

وناهيك انه وقت الضيق يعرف العدو من الصديق . في الضيق والشدة يمتحن الذهب الخالص ويصدأ فيعرف جيده من خبيثه . وقت المصيبة تتقد جذوات المحبة الدينية ويخبو سعير الاهواء الدنية . في الضيق والعسر تلوح مصابيح الايمان النيرة وتتلبد غيوم الطغيان الحالكة

فلمثل هولاء الجبناء نقول : انكم ايها النصارى المعمودون رأيتم آباكم يساقون ويعذبون ويذبحون فتوخيتم البقاء بعدهم

مستاثرين بالحياة الزهيدة . سمعتم ان آلكم واصحابكم باؤا بدماء اعناقهم حباً لايمانهم . اما انتم فغصتم في بحار الطمأنينة ضناً بحياتكم القصيرة الفانية . رايتم شبانكم منتصبين في المحاكم الجائرة تلفق عليهم الشكاوى الظلمية فيساقون في ايادي الكفرة يحكمون في دمائهم ما شاؤا . فيغلون في دينهم ويتوطدون في معتقدهم . اما انتم يا قليلي الايمان فاستيأستم وقنطتم وغرقتم في امواج العالم الغدار . يا للعار ويا الشنار . رايتم اخوانكم ذاهبين لنال تاج الغار اما انتم فلففتم العمامات البيضاء وتخطرتم في شوارع المدينة على اعين بقية المسيحيين دون حياء . فاتكم ما قيل

اذا ابقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

وزبدة الكلام انكم خنتم عهد ربكم وجحدتم دينكم حبأ لصوالحكم وضناً بعيالكم مع انكم سمعتم ربكم يقول « طوبى لكم اذا عيروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كل كلمة سوء من اجلي كاذبين . افرحوا وابتهجوا فان اجركم عظيم في السموات . لانهم هكذا اضطهدوا الانبياء من قبلكم »[متى ٥] وهكذا عذبوا اجدادكم المسيحيين في مغارب المعمورة ومشارقها وفي شماليها وجنوبيها

شاهدتم اخوانكم يغلون في اعتقادهم اما انتم فرحتم تقذفون التجاديف وتقسمون باسم الله العلي كيفما كان ولاي سبب كان اسوة بالذين جاريتموهم وتبعتموهم . ويا ليتهم عاملوكم باللطف والمجاملة وما اضطروكم الى الاتعاب والمشقات والعمل في المنارة والبيوت مجاناً حتى ضارعتم الاسرائيلين يوم كانوا تحت رق المصريين . بل

افضت بكم الجسارة الى تكذيب ما تلقنتم من المبادئ الراهنة وتسفيه التعاليم الحقة حتى انكم اثناء الشدة الغيتم ذكر آبائكم بالمرّة ونسيتم فضلهم وفضائلهم بالكلية

فليس لكم بعد هذا كله الا ان ترجعوا الى كنيستكم وتكفروا عن خطيئتكم بالتوبة النصوح وتلوذوا بدماء اوليائكم وآلكم وتستغيثوا برفاتهم وتستعينوا بدعواتهم لعل الله العفو الغفور يغمض عما اسلفتم ويمحو من صك عدله ما اجترمتم . لانه تقدس اسمه يُطلع شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الابرار والظالمين [متى ٥] ولا تنسوا ما قيل

وغاية هذي الدار لذة ساعة ويعقبها الاحزان والهم والندب

ونختم هذا الفصل بسرد اسماء جميع الذين هجروا الايمان المسيحي صيانة لحياتهم . ضاربين الصفح عمن مات منهم وقام المسلمون بتشييعهم ودفنهم

الاستاذ ايليا (لولي) كيسو وابناه عبد الجليل وسليم . واولاد سليم الثلاثة . الياس بعبوصي . جرجس صاني . حنا صاني . فرجو حنجو . سعيد وعبد المسيح صاني . يعقوب توما كيسو وابنه توما . حنا حنجي . اسكندر بجدو الميمي . جبور نكزي . يوسف صباغ . الياس جرجي . جبرائيل اصبهان . انطون بيدروس . سعيد مريخ . ابن خاجو . اوهنيس نهبيه وجبور قصعه السرياني . يعقوب سوسي وجرجس مرزايو اما النساء اللاتي اضطرهن المسلمون الى جحود الايمان المقدس فلا حاجة الى ايراد اسمائهن

ولنا وطيد الامل انه سيوافي وقت فيه تُفتح الكنائس المغلقة

ويعود النصارى الباقون الى ما كانوا عليه من شديد العبادة وحميم المحبة نحو الاههم عز شانه ودينهم المتين الوطيد قرب الله ذلك اليوم السعيد

الفصل الثاني والعشرون

في المآدب

تهيأ المآدب للصفا والانشراح وتتوفر فيها بواعث الهناء والافراح واذا قضاها المرء على كيس غيره كان صفاؤه اكثر ولذته اوفر ومتى حضر شيطان الخمرة ولعب بالرأس استفحلت الشرور وتفاقت الفظائع ورقصت المفاسد والمظالم

فالنصارى اذ كانوا غائصين في بحار الهواجس متقلبين على بساط الهموم متجرعين كؤوس الضيم مختفين عن عيون الخصوم كان اولو الشهوات يجتمعون في النوادي يتساقطون الاحاديث والاخبار ويعقبون على من بقي من الشيوخ والفقراء ليوقعوهم في الورطات ويقطعوا خيط حياتهم ويحتووا على جميع ثرواتهم وقد قيل ويلٌ للشجي من الخلي اي ويل المهموم من الفارغ

وعليه فلما استاقوا الاغنياء والوجهاء وفتكوا بارواح زهرة النصارى في القافلات الثلاث التي ذكرناها في ١٠ و١٤ حزيران و٢ تموز . راحوا يستنبطون الذرائع لسوق النساء ايضاً . فتم الرأي ان يبقى من بقي من الرجال ليساق في القريب العاجل مع النساء بنوع انه لا ينتهي شهر ايلول حتى ينجزوا الامر حسب المأمول

فجعلوا يولمون الولائم ويأدبون المآدب كل ليلة في دار فيتمضفون

لحم النصارى ويتواون عليهم بالسوء ويعقبو . ويعمقون على الاسماء ويرقونها في ورقة على حدة ويبعثون بها في ... اصبوحة الى الضباط القبض على من كان اسمه مدرجاً فيها . وكانت نوادي الخصوم والحالة هذه كأوكار انضم اليها ذئاب الخبث وثعالب الغدر واسود الفساد ونمورة الخيانة . واصاب السهم الافوز في ذلك كله بدري المتصرف فكان اسخن الله عينه ناطورة الديوان وعين اولئك الاعوان . اذ كان نهض بامور الخبث والدهاء من غيره . فكان يستنزف الذهب والفضة من سيدات النصارى فيولم الولائم الحافلة بالاطايب من المآكل والمشارب وكانت تتخللها اغاني القينات السمجة وحركات الزواقص النجسة ذاك اقتناصاً لحبة المنصبين واستخلاصاً لافكارهم ورذاهم ليسكتوا عما يبدو منه مما يمجه الذوق وينفر منه الطبع وتشمئزه الانسانية الحرة

وعلى هذا المنوال كانوا يقضون الليالي مذ عاشر حزيران فصاعداً ويتقلبون في الترفع والترفه . وكانت عقولهم ثملة برحيق الانتقام والتشفي ونفوسهم فرحى بما صار ويصير وقلوبهم مرحى بالمكاسب والارباح المستعجلة . وكثيراً ما قالوا ما النصارى الا كشعر الراس نخدمهم ونكرمهم ما داموا على كرهم وفرهم . ومتى فارقونا استقذرناهم ورفضناهم واستحوذنا على جميع مالهم وكنوزهم

وتتابعت المادب وتوالت في بيوتات الوجهاء جمعاء وما كادت تنتهي ليلة بدري حتى كان غيره يرغم ويؤثم من لا يحضر ليلة الغد في داره للمسامرة ومواصلة ما سبق من المحادثة وعلى هذا النمط قضوا شهراً كاملاً والمصاريف كلها على حساب النصارى المظلومين

يستلبون اموالهم وحليهم ويسرفونها في البذخ والرفاغية فتم ما قيل :

ومصائب قوم عند قوم مسرة

ومن الغريب ان هولاء لم يكونوا فيما سلف يراعون عهود الصداقة وحقوق الولاء لبعضهم بعض ولكنهم في مسئلة الحاق الضرر بالنصارى وازعاجهم تحالفوا وتسابقوا في الشر والعسف وصدق فيهم ما قيل « راح العدو من بيننا فتصافينا » راح النصارى فتآخينا وتصالحنا . على ان نجيم بن امين مدير بنك الزراعة رقم لائحة عنوانها « فرخ الحية حية » فيها صرح بوجوب استياق النساء المسيحيات واجتثاثهن . وبناء عليه . أصلتوا سيوف الفتن ورفعوا الوية البغض واحيوا معالم الجور ومرجوا الالسنة في الاعراض واعتمدوا على سوق النساء كالرجال وافتضاضهن وسبيهن او قتلهن وسفك دمهن

تمتعوا يا هولاء تمتعوا بكفركم وطغيانكم وتمادوا في ضلالكم وبهتانكم . فلا بد من يوم ينقطع فيه وتر حياتكم التاعبة فتغدو رووسكم ناكسة ووجوهكم متقمة سوداء عابسة . فتستحيل المأدبة مندبة والفرحة ترحة والصفاء مناحة . فاذا قيل لكم لا تفسدوا في الارض قلتم انما نحن مصلحون الا انكم انتم المفسدون [سورة البقرة]

الفصل الثالث والعشرون

في الترحة او قدوم قافلات الارمن من ارضروم وغيرها ٤ — ٩ تموز

كأني بك ايها القارئ النجيب ... مطالعة ما اقص عليك

من الحوادث المحزنة والاخبار المزعجة مما يزيدك كدراً وغماً ويبرد منك الهمم ويضعف فيك النشاط فتود اذن لو اخبرك بما يسر قلبك ويكشف عنك ضيمك . بناء على طلبك وافيت ادعوك اليوم الى نزهة في غربي البلد الى باب المشكية لنسرح الطرف في الاراضي المخضوضرة المتلجة التي استأسد نباتها والتفت اشجارها وكثرت ثمارها وعذبت بقولها . وبما اننا في شهر تموز فالنزهة صباحاً اولى واوفق لئلا يتعذر علينا اذا اشتد لافح الحر ان نرجع الى دارنا دون تكلف ومشقة

هلمّ بنا اذاً الى كرم الدير المفردس نتشرق هنيهة في ذلك القهقور ومتى ذرّ قرن الغزالة تفيأنا تحت العرزال واستنشقنا نسيم الصبا الطيب . اليك ايها العزيز اهالي القرى والبساتين موافين بضروب البقول والثمار من الحدائق الغناء كالمشمش والكرز والتفاح والخوخ والاجاص والخيار والكرفس الى غير ذلك من الثمار والبقول اليانعة اللذيذة . تراهم جذلين محبورين فرحين فخورين بما تدفق عليهم من الخيرات وما حصلوا عليه من الاموال وقد خيمت فوقهم الطمأنينة وساد فيهم الامان . وامتلأت اكياسهم من الفضة والاصفر الرنان . يودون لو تطول هذه المدة وتطمئن لديهم الارض . . ما اعذب الهواء الذي نستنشقه . وما اطيب الروائح المنبعثة من النباتات الحافلة بانواع الزهور والوان الورود مما ينعش الطبيعة بعد خمودها ويبعث فيها روحاً جديدة بعد همودها . تفرس في تلك الروابي المكللة بالاشجار وقد فرشت عليها شمس الضحى ارجوانها القانئ . . ما اجمل هذا المنظر !

ولكن يا لله ماذا ارى عند عين عمر آغا . ارى قافلة كبيرة تسرح كانها قطيع غنم او بقر . هلم المنظار لنتحققها . . جيش عرمرم يناهزون عشرة الاف نسمة . ارى اغلبهم نساء واطفالاً صغاراً وبينهم بعض الشيوخ والعجائز . ارى جنوداً محتفين بهم يوسعونهم ضرباً ورفساً يحملون عليهم فينجفلون بين يديهم . اليك دواخن البواريد متلبدة فوقهم . تطرق اذني اصوات كالمدافع . أفرزت منهم شرذمة اكتنفها بعض الجنود . اراهم يدعونهم دعاً عنيفاً ويتسلقون بهم مصاعد تلك القلعة . يا لله ! الى اين . الى البئر كالامس وما قبل استعرضوهم للتعرّي واحدّوا عليهم السكاكين واعملوا فيهم الخناجر وفصلوهم وزجوهم على حاق راسهم وعادوا ادراجهم . تباً للفظاظة والخشونة

ها هوذا مئاتٌ منهم انعرجوا عن الجادة ونزلوا بهم في منعطف الوادي الجنوبي هوذا سكان قرية الوسكية قد بادروا اليهم كالكلاب الكلبة يعرّونهم ويحاولون ان يرتكبوا المنكرات ويقضوا الاوطار يقسرونهم ليكفروا بدينهم . يسدحونهم فيختلعونهم فيذبحونهم ويعودون فيقولون مع عنترة :

لنا النفوس وللطير اللحوم ولل   وحش العظام والخيالة السلب

اليك البقية قادمين افواجاً افواجاً كالجراد يبلغون ثمانية الاف عداً . عجبي قبل هنيهة كانوا زهاء عشرة الاف . فاين الالفان . فاذا كان الخصوم الطغاة قد فتكوا بارواح الفي نسمة في مدة ثلاث ساعات . فكم كان عددهم يا ترى حين نُفوا من اوطانهم ؟ لا شك انهم كانوا اكثر جداً من هذا العدد . وقد سمعت منذ ايام

انهم يبلغون خمسين الفاً . وهم قادمون من ارضروم ولجه وخربوط وما والاها من بلاد الارمن . ها قد وصلوا الى الصهريج وقد تاجج صدرهم عطشاً فلا يدعهم الجند ان يبردوا اكبادهم بل يلجئونهم ان يسيروا السير العنيف . وها هم يتوكأون على بعضهم والنساء حاملات الاطفال على الاكتاف

اليك كبار البلد وقد وخطهم الشيب مستوين على صهوات الخيل يتبعهم الاولاد والنساء راكضين مبادرين في هرج ومرج وقد انجلقت افواههم مفرطين في الضحك تلعب في عقولهم هواجس الطمع والخلاعة يستركضون الخيل للبلوغ الى العين . يسبق بعضهم بعضاً على الاختلاس والخطف . حذار ان يلمحونا . هلم نختف عن عيونهم تحت هذه الشجرة لئلا يصيبنا ما لا تحمد عواقبه

هوذا فئة اخرى من المسلمين الصعافيق متابطين اوعية ملاى بالماكل حاملين اطباق الفواكه والثمار كأنهم خارجون الى نزهة او فرجة . ولكنهم مشاوون الى السلب والنهب والخطف . الله وحده يعلم سرهم ونجواهم . قد دنوا من القافلة واكتنفوها اخترق قوم منهم الصفوف للتفتيش والبحث

انظر النصارى الارمن في حال يرثى لها مفترشين الارض ليستريحوا من تعب الطريق . قد اجهدهم الجوع وجد بهم العطش يتالمون ويتلاومون يطلبون البلوغ الى الماء ليرووا ظمأهم فلا يؤذن لهم الا بعد قبض شي من الدراهم . لا يكاد يصل الواحد منهم الى النبع ويتقدم ليجرع جرعة حتى يقبض فتاتيه الضربة فاللطمة فالرفسة فالموتة . يلتمس نفر كسرة خبز فلا يذوقها الا ممزوجة بالزقوم

وصل اليهم اصحاب الخير والمروءة ليبيعوهم شيئاً مما استحضروا

– قواكم الله يا نصارى . الحمد لله على السلامة يا ارمن

– مرحباً بكم يا اسلام . ما عندكم من القوت والثمار

– الرغيف بمجيدي ابيض – حفنة الزبيب بعشرة قروش – التفاحة بغرش – الاجاصه بغرش – سعر محدود – لا يقبل اعتراضاً – الاسعار متهاودة – جرعة الماء بخمسة غروش – كلوا واشربوا هنيئاً مريئاً . انما جئنا اليكم مشفقين عليكم لنسد جوعكم ونسليكم – وان شئتم استصحبنا الى بيوتنا جماعة منكم

الاحظ وجوه المسلمين ونساءهم متغلغلين وسط النصارى الفائضة عيونهم بالدموع والمحشوة قلوبهم من الاكدار . ينتقون منهم من ارادوا دون مانع . يتخيرون من استحسنوا من الاطفال والاولاد والنساء ولاسيما الفتيات . يضطرونهم ان يجحدوا دينهم فلا ينجحون يعدونهم بالنجاة من القتل ان وافقوهم فلا يفلحون . فالنصارى على شدة عناهم وشقاهم يظهرون بسالة غريبة ونبالة عجيبة ويقولون لهم ما نحن بتاركي الاهنا وجاحدي ايماننا . اختلسوا واسلبوا واخطفوا واقتلوا . طوحونا في الصحارى . القونا في الآبار . فانا لائذون بالصبر الجميل حتى يحكم الله لنا وهو خير الحاكمين

اليك نبلاء البلد قد اختطفوا عدداً صالحاً من الفتيان والفتيات من دون ان يعارضهم احد الجنود الحراس او ان شئت فقل الجنود الداعين الى الاختلاس . اراهم راجعين يتجاقون . فقوم مردفون فتياناً على خيلهم وقوم مختطفون بنات قنعوا وجوههن كي لا يراهن اصحابهم الانذال فيتقاتلون عليهن . هذه حاملة على ذراعيها فتى

جميل المنظر تريد ان تتبناه لانها عاقر · وتلك قابضة بيدها على ابنة تريد أن تستخدمها· هذا ملا جيبه من الذهب والفضة وعاد مسرورا يضحك بلء شدقيه وذاك حمل ما طاب له من المتاع ورجع يقرقر ويكركر · نزل هذا من دابته وحملها ما شاء وترجل · وذاك ينهب الطريق ليصل الى داره قبل ان يشعر احد· هولاء يتخاطبون في الطريق مبتهجين لا يملكون نفوسهم من الطرب لما نالوا من الغنائم في اوجز مدة جاهلين ان ما جاوءا به هو سحتٌ حرام ·وان الخائن كبر مقتاً عند الله

قد انكفئوا راجعين الى منازلهم يكادون يخرجون من جلدهم فرحاً وقد امتلا كيسهم وانجلى بوءسهم·تركوا من بقي من الارمن تتقطع احشاوءهم لهفاً وتتساقط نفوسهم غماً واسفاً وانثنوا عائدين يتدفق السرور من وجوههم ــ صبّر يارفيق النفس لننظر ما يصير ونقف على النتيجة

اليك الجنود القساة وقد شدوا وطأتهم على الارمن ونهضوا يضربونهم ويصفعونهم · قبضوا عنهم جناح الرحمة والجاوءهم ان يمشوا وقت الهاجرة لتطبخهم الشمس بحرارتها الوهاجة وتنهك ما بقي فيهم من القوى · ها هوذا قد ساقوا قسماً كبيرا منهم وطوحوهم في مهاوي التركمان ــ اسمع اطلاق القنابل عليهم وانظر عجاجهم وعجيجهم · صبوا عليهم سياط الالام وتركوهم جزر الحيوانات وعادوا·ها هوذا يسوقون البقية الى البلد · الى اين ياترى ؟ ــ الى الدير على ما اسمع · اذاً فلنبادر الرحيل ولنعد الى منزلنا · كفانا ما راينا · لعمري لقد تمزق قلبنا واقشعر جسمنا وشملنا من الحزن والكآبة

اضعاف اضعاف ما شملنا من المسرة في اول وصولنا الى هذا المحل المشوءوم ــ لا يعزب عن فكركم ايها المنافقون والمنافقات ان الله العادل قد وعدكم نار جهنم خالدين فيها هي حسبكم ولعنكم الله ولكم عذاب مقيم [سورة التوبة ١٩٦] طالع ما سنكتبه عن دير مار افرام في الاعتكاف [ج ٣ : ف ٣٠]

الفصل الرابع والعشرون

غدر وخيانة · مصرع الفتى انطون حمار باشي

ما برح كبار الحكومة ووجهاء البلد يتشاورن ويتباحثون في مسئلة النساء النصرانيات حتى اتفقوا باجمعهم على سوقهن·فذاعت هذه الكلمة وشاعت ودبت الرعبة في الافئدة وايقنت النساء انهن سيصرن الى ما صار اليه الرجال · وتاكد لهن ذلك لما رأين قافلات النساء اخذت تتوارد من اعالي ارمينية كالقافلة الكبيرة التي اشرنا اليها سابقاً · وفي خامس تموز وصل الى ماردين طائفة من سيدات دياربكر الارمنيات تقلهن عربات النقل فذهبوا بهن الى دارا وذبحوهن باجمعهن · فهذه الحوادث وما شاكلها ادخلت الرعب على قلوب سيدات ماردين فارسلن الى بدري المتصرف غراً بنت القصار لتقف على النتيجة فقال لها اجمعي مبلغاً كذا اعف عنكن · فجالت في البيوت وجمعت شيئاً كثيرا من الذهب حملته في الحقيبة الى المتصرف ولكن القلق كان يزداد يوماً فيوماً

فاتفقت اذ ذاك شموني قرينة نعوم جناجي وريجينا قرينة اسكندر آدم ووردة قرينة يوسف خوجا يونان وقصدن دار عبد

القادر باشا الحاج كوزه في سابع تموز يلتمسن منه ان يوقفهن على حقيقة الامر . او يسعى في نجاتهن والبقاء في بيوتهن . فما كان من الباشا الا ان زجرهن وانتهرهن وقال لا سبيل لي الى تخليصكن ارجعن من حيث اقبلتن ولا تعدن تأتين اليّ . واعلمن انكن ستسقن كالكلاب واذا بقيت منكن بقية فستطرد من بيوتها وتلزم الاصطبلات ويرتب لها المعاش اليومي الجوهري لا غير . فاستحوذ على السيدات المذكورات القلق والرعب وعدن الى بيوتهن مأيوسات واخذن في التاهب والاستعداد للرحيل

واليك ما روت لنا زيزف قرينة اسكندر حال عن والدتها ريجينا قرينة اسكندر آدم لتتخذ من ذلك امثولة عما جرى لسواها من السيدات الارمنيات قالت :

لما عادت والدتي ريجينا من دار الباشا سرتُ اليها حالاً لاقف على نتيجة ما جرى فاكدت لي ان لا بد من سوقها وقتلها وقتل كنتيها وانجالها وجميع السيدات الارمنيات . فلبست ولبسنا معها السلاب واكبت تبكي وتنوح حتى نضحت خدها بوابل دموعها . ثم جمعت افراد الاسرة وكانوا احد عشر ودعتهم ليصلوا ويلتمسوا الغوثة من رب السماء . وظلوا كذلك ثلاثة ايام بلياليها يعذب السهر اجفانهم ويؤلم الجوع ابدانهم . اما والدتي فزادت على ذلك انها فرشت الرماد ولازمته مدة ثمانية ايام بلياليها . ويوم الاثنين خامس تموز اقبل ممدوح وهرون وعبد العزيز بك في ثمانية من عسكر الخمسين المتطوعين وقال لوالدتي اخرجي السلاح وادفعيه لي . وجعل يقضبها ويضربها وهي تقول وا ويلي من هذا الراز

الجائر الذي يتظاهر بالانس وهو فاجر كافر . ثم خلع ممدوح رداءه وعلق يضرب سائر من في البيت ويقول عليّ بالسلاح والا قتلتكم جميعاً . فاكدت له امي ان لا سلاح عندها البتة . والتفتت تقول لذويها . اعلموا يا اعزائي انكم نزهة قلبي وقرة عيني فلئن صدعت ايادي الاثمة شملنا فاننا لا نبطأ عن الاجتماع في مقرنا الابدي فبحقي عليكم ضموا الصليب الكريم على فؤادكم وجددوا وثيق ايمانكم ولا تفتروا من ان تقولوا : اننا نحيا ونعذب ونموت على ايمان يسوع . اما ممدوح فجال الحجر والغرف كلها ثم عاد الى امي يبالغ في تهديدها رغبة الحصول على ما توهم . فلما لم يجد عندها شيئاً خرج يضمر لها السوء واراد ان ياخذ فرس والدي لكنه اضرب عنها ساعةً وانصرف

واتفق ان ابن خالتي انطون بن انطون معمار باشي وعمره يناهز الخامسة عشرة وجد اثناء ذاك عند امي ريجينا يتعهد احوالها . فاستدعاه ممدوح الى مقام البوليس فضربه ضربات شتى واضطره الى ما لا يجوز ثم سار به الى السجن . وعصر الاربعا ٧ تموز استدعاه يقول اعلم يا هذا اني ساطلقك من السجن لخاطر والدك . ولكني لستُ اخلي سبيلك ما لم تحضر الي فرس اسكندر زوج خالتك . فاقبل انطون واخبر مالك عمه بما حدث له ثم راح يطالب الفرس من خالته فاستشارت خالته بطران السريان فاشار عليها ان تعطيه الفرس . فركبها انطون وسار بها الى ممدوح فرآه من رآه من المتعصبين فقالوا هذه رشوة يحاول ممدوح ان ياكلها وحده . فشعر ممدوح بما افتكروا واخذ الفرس وقال لانطون قد اصطفيتك لتجول معي

بمثلة ترجمان في بعض الدور . فسار معـه الى دار جنانجي وشلبي واستخلص ممدوح من البيتين ما طاب وتيسر له . وبعد هذا ارسل انطون الى بيت ميخائيل كامل كنديز ان اعدوا لوازمه فانه الليلة يسافر . فما لمح البوليس انطون حتى قبضوا عليه وساروا به الى مقام البوليس فشعر ممدوح بذلك فبعث واطلقه وسرحه الى بيته

وليلة الجمعة تاسع تموز عند الساعة الخامسة ليلاً اذ كان انطون نائماً في التخت خارجاً اقبل كبوشو الشهور يتبعه حقي صاحبـه في افتعال الشرور ومعهما خشبة ضخمه وضعاها على الحائط وركباهـا متعرشين بها حتى وصلا الى سرير انطون فاوقدا كبريتاً فأنبتاه ونبهاه وقالا له هلم الساعة فان ممدوحاً يطلبك . فنهض انطون مذعورا ولبس ثيابه وتبعهما . وعند الصباح سارت في طلبه ابنتا عمه ملك فقيل لهما ان قد ساقوه فقصدتا دار ممدوح . فتجاهل وقـال كيف تقولان ساقوه . ومنو الذي ساقه ؟ فاذا كان ذلك صحيحاً فها انا مرسلٌ خيالاً ليرده . وما عتم ان اصدر ممدوح الامر بسجن الذي اذاع ان قد سيق انطون . اما ملك عم الشاب فرفع الدعوى الى بدري فحولها الى ممدوح فسارت ابنتا ملك لتقفا على النتيجة فضربهما الضباط وزجروهما . ويوم السبت ١٠ تموز وافى معاون القومسير الى دار ملك معمارباشي يستفسر عن انطون متجاهلاً ويقول ان عليه دعوى

وحقيقـة الواقع ان محمد كبوشو وحقي سارا بانطون الشاب اللطيف الى باب الصور واطلقا عليه الرصاص وقتلاه وعادا فاخـبرا ممدوحاً بما اقترفا فلم يصدقهما الا بعد ان رجعا فحزا هامته وحضرا بها اليه ولما استحققها سر قلبه الخبيث وطاب نفساً . فغدا مثل ممدوح

وانطون مثل افعى يطعمها المرء ويكرمها ثم لا يكون منها الا اللدغ

اوردنا ههنا حادثة ريحينا آدم وحادثة انطون معمار باشي ملمعين بذلك الى ما جبل عليه الوجهاء والمنصبون من اللوم والغدر والخيانة وقد جاء في القرآن « هل انبئكم عـلى من تنزل الشياطين . تنزل على كل افاك اثيم . ان الله لا يحب كل خوان كفور [سورة الحج]

الفصل الخامس والعشرون

قافلات النساء القادمات من دياربكر ٥ ـ ١٥ تموز

ومذ خامس تموز اخذت قوافـل النساء والاولاد تتوارد من دياربكر ونواحيها طبقا بعد طبق فكان اعداء النصرانية يبـادرون مسرعين وينتقون الحسان من فتيـات وفتيان ويخطفونهم ويمضون بهم الى بيوتهم ويذهبون بالبقية الى دارا ونواحي ويرانشهر وراس العين فيعرونهم ويذبحونهم ويلقون الجثث في المغاور والابار ويحتوون على الاسلاب من الحلي والثياب ويعودون

وروى لنا الكثيرون ان داود بن خضر افندي احد الجلادين الثمانية الذين اصطفاهم دعاة الكفر والنفاق لانزال النكال بالحريم والاطفال قال متشدقاً ذات المرار: اني لما كنت اعري النساء والفتيات والفتيان واجلدهم فوق آبار دارا وفي مغاورها كنت احسو في كل فترة شيئاً من دمهم ليزول عن راسي الدوار واستجمع القوى لاواصل العمل . تامل يا هذا وتبصر وانظر الى اي حد يتصل الانسان من الخبث والفظاظة واحكم بما يستوجبه

وفي ٨ تموز وافت الى ماردين قافلة ثانية من نساء دياربكر راكبات

عجلات النقل فسارع اليهـا الانذال وخطفوا منهن من استحسنوا واستحوذوا على الحلي والثياب وركبوا الفواحش قدر مـا اشتهوا ٠ من ذلك ان صادق بن علي التزي خطف فتاتين جميلتي المنظر ولفع راسيهما ببرطين حذر ان يراهما سائر اصحابه ومضى بهما الى بيته او ان شئت فقل الى ماخوره وارادهما عـلى المنكر فابتا كل الاباءة فحنق عليهما وسار بهما الى جنوبي البلد فعراهما واوثقهما وركـب منهما المنكر قسرًا ثم قتلهما عند صهريج شاق التين وتابط ثيابهما وانقلب راجعاً الى بيته وكانت عيون نصارى الحي تلحظه ٠ وعنـد الصباح سار حنا منصور السرياني الى المقطع ليشتغـل مع الحجارين فراى الجثتين ملقاتين على الحضيض وبالقرب منهما صليبين مكسورين وكتاباً ارمنياً ممزقاً فاستدعى فرنسيس صاني وحفرا لهما ضريحاً دفناهما كلتيهما ٠ وكان يشاهد في كل اصبوحة جثة او جثتين فيدفنها

وباراه في الفحشاء والخشونـة والقسـوة ججانو بن خلفو الذي خطف من تلك القافلة عينها فتاتين جميلتين واخذ منهما سبع ليرات وشيئاً من الحلي واكد لهما انه يصونهما ويحقن دمهما ويدرأ عنهما كل ضيم ٠ غير انهما ما باتتا عنده ليلتين حتى مضى بهما الى البلسيق واخذ معه سفودًا ثقب بـه قدميهما كلتيهما وسلك الحبل في تلك الثقوب واوثقهما وعراهما وركب منهما الفاحشة ثم جعل يجرُّهما بشراسة على تلك الصخور الصلدة حتى ترضضت عظامهما وتكسرت وأغمي عليهما ــ افتح اذنيك يا انسان واسمع ــ وما كفاه ذلك بل انتقى حجرًا كبيرًا كفخ به هامتيهما وفسخهما وعاد بالغنيمـة الى داره ــ أنفتحي ايتها الارض وابتلعي هولاء الارجاس الانجاس

المتهتكين الخالعين

وحضرت قافلة ثالثة من دياربكر في عربات النقـل ايضاً بلغ عددها نيفاً واربعمائة ٠ ولما وصلوا الى خانكه جزموا ان يفصلوا الفتيان والفتيات من امهاتهم ٠ واتفق ان جميلة بنت بطارس حكيم الكلداني قرينة ارموش (ارميا) ابن سعيد حداد السرياني بادرت الى عربة اولادها لويس ورحيم ومـاري وعانقتهم والدموع تتساقط على خديها وودعتهم ٠ فساقوها مع صواحبها الى محل قريب وفضحوهن وقتلوهن ٠ اما ماري فافرزوها من اخويها وضموها الى سائر الفتيات واحضروهن الى ماردين واقتسموهن قسمة ضيزى ٠ فوقعت ماري في حصة رجل يقال له صالح فدفعها الى امرأته لطيفة فمضت بهـا الى بيته اما عزيز اخو صالح فخطف ابنة اسمها روزا عمرها اثنـا عشر ربيعاً ٠ وبعد ان اقامت كلتاهما في دار صالح وعزيز حولاً كاملًا استاذنت روزا في الذهاب الى دياربكر واخبرت كدار جدة ماري بامرها فدفعت لصالح عشرين ليرة ذهباً فاوفدها الى دياربكر ورجعت روزا الى ماردين واستمرت عند عزيز

ثم وافت قافلة رابعة كان اغلبها من اهالي ماردين عرفنا منهم عبد المسيح كركوش وامراته وابنه وصمموا ان يسوقوهم مع البقية فلاذ عبد المسيح بالسيد جبرائيل مطران السريان فاستحصل الامر بنجـاته ٠ اما البقية فمضوا بهم الى نواحي ويران شهر وقتلوهم والقوا جثثهم في الآبار ــ وعلى هذا النسق افتعلوا في جميع قوافل النساء المسيحيات وفيما ذكرناه كفاية

الفصل السادس والعشرون

انقضاض البزاة على العذارى المحصنات

لزمت الحمامة مقصورتها خائفة مذعورة وفي صدرها نجية اسهرتها وفكرة مزعجة دوختها واسكرتها فراحت تعلل فوادها العليل بالاسى والصبر الجميل واستدعت صغارها وطفقت تناغيهم وتشدو لهم الاغاني المحزنة وتنشي، لهم المراثي المرة الوجعة وتذكرهم بما صار اليه آباؤهم واخوتهم وتوصيهم ان يرفعوا حميم الدعاء الى المولى العطوف ليخفف عنها وعنهم وطأة سخطه ويرد سيف النقمة الى غمده وما برحت تطوي الليالي على تلك الحال حتى خامس عشر تموز فانطبق عليها من كل فج البزاة الانذال يبغون الغوائل لها ولانجالها ورضعانها ويحاولون اختلاس حليها واموالها واستباحة دورها وجميع املاكها. فانخلع قلبها وخفقت احشاؤها ورجفت اعضاؤها ثم افاقت واستجمعت قوى جديدة والتفتت تستطلع الاعداء طلع الامر فقالوا انهم مقبلون ليخرجوها من خدرها ويسلبوها مالها وحريتها ويطوحوها في الفلوات وينزلوا بها وباولادها الشرور والعذابات

وما دخلوا على الحمامة وصغارها حتى شهروا عليها وعليهم السيوف البتارة والسهام النافذة وهم يقولون لها غادري الساعة خدرك يارائعة المحاسن . ابرحي وكرك يا جارية فرهاء وامتثلي الاوامر ياعذراء نجلاء . فاننا اقبلنا لنخطف زهرة عفافك ونسلب قلائد فخارك ونشبع ابصارنا من روية محياك الفتان ونتصرف بك كما يشاء الهوى ويوسوس الينا الشيطان . ذري حليك وجواهرك ودعي

مصوغاتك ولآلئك فاننا نوصلها اليك ...

فنهضت تلك السيدة الحصينة والحماسة المسيحية آخذة منها كل ماخذ وقالت لهم . يالله ! اين الانسانية واين المدنية . اين المبادىء الدينية والاصول الشرعية . اين السنن العادلة والحقوق المرعية . اما قيل لكم « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ذلكم خير لكم [سورة النور] وبعد قليل « فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم . وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم » اذن من اذن لكم ايها السفلة ان تخطوا هذه القصور الرفيعة وتخرقوا هذه الحصون المنيعة . ويحكم من احل لكم ان تهجموا على الحرائر المخدرات وتلجوا اخدار العذارى المحصنات وتفزعوا افئدة الفتيان والفتيات . ترى من اصدر هذه الاوامر الغريبة . من افتى هذه الفتاوى الجائرة الخبيثة . اهذا مبدأ يرجع اليه . اهذا شرع يعول عليه . لا بارك الله في مبدأكم وشرعكم . لعمري ان اوامر كهذه لا يصدرها الكفرة ولا الهمج بل لا يجمع عليها اسافل الناس وسقاطهم . اعلموا ان عملكم هذا عمل بربري يأنف منه الطبع البشري ويأباه التمييز وينفر منه كل ذي لب . عمل يستوجب مقترفه افظع عقاب واشنع عذاب . عمل اذا ما سطر على صفحات التاريخ استبشعه كل من طالعه واستشنعه كل من سمعه . واستغلظه كل اديب واستفظعه كل اريب فصاح من فوره فليقتل الجاني والطاغي ولينكل به . وليعذب الآمر والمنفذ وليمحق اسم هذا وذاك من على الارضين وليخف في بلاليع العدم وليرد اسفل سافلين

ليت شعري اما بينكم احد ذو نخوة وحمية يكف عنا شر هذه البلية . اما فيكم انسان ذو انفة واريحية يمنع عنا هذه الرزية اترضى الحكومة ان تنتهك اعراضنا . ايروقها ان تسفك دماؤنا ايعجبها ان تسلب اموالنا . والا فكيف ادت بكم القحة والجسارة الى الدخول علينا على غرارة

— قدكِ سفاهة يانصرانية . الزمي السكوت ياسليطة . واسرعي الى الرحيل ولا تتشبثي بقال وقيل . فاليوم لا مبدأ ولا شرع ولا ولا ... بل الظلم والغدر والسيف والسلب .. اذا غادري دارك انت وانجالك . لا حاجة ان تاتي بقوت لغذائك او تحملي ذهباً وفضة معك . فانك متى وصلت الى حلب عند قرينك او ابنك ؟ رايتِ كل ما يسرك

— لكني عرفت ان قريني وشباني قد قضوا مذ اسابيع معدودة بالقرب من هذه المدينة المنحوسة فما لك تموه علي الكلام

— غضي صوتك يا كذابة وعجلي بالرحيل لتلحقي سائر صواحبك والا ضربتك ضربة قاضية وفتكت بك ههنا

ولما استيقنت الحامة ان لا مندوحة لها من الخضوع للاوامر الاعتدائية استودعت الحكم لله العدل القهار الذي « يقص الحقَّ وهو خير الفاصلين » [سورة الانعام] وتاكدت ان باسه لا يرد عن القوم المجرمين [سورة يوسف] ثم التفتت الى صغارها تقول لهم لا يشرد عن ذهنكم يا اخواتي واولادي اننا انما وردنا الحياة الدنيا لاستحصال حياة اسعد واعذب : ما خلقنا للبقاء في دار الشقاء بل للارتحال الى دار الهناء والصفاء . الا يحق عليكم لا تيأسوا ولا

تفشلوا فان ربنا معنا اينما توجهنا — انتن يا بناتي وكناتي المحبوبات توشحن ثيابكن الناصعة البياض عربوناً لطهارتكن . واشددن احقاءكن بدرع القوة تاييداً لديانتكن . ودسن باقدامكن مجد الدنيا وزهوها وانبذن ظهرياً لذائذ الحياة ونعمها وبادرن الى الاستشهاد حبّاً لمن قضى على الصليب لاجلكن فقيرا عرياناً لغير ما سبب . اي بناتي وكناتي العزيزات تشجعن ووشحن هيئتكن الانثوية بسالة رجلية ولا تبخلن بانفسكن فانكن لستن خيرا من رجالكن وابائكن وروسائكن

فهبت اذ ذاك عذارى الفادي الحواصن وتدرعن بالبسالة والنبالة ونسين شعبهن وبيت ابيهن . تركن الاطواق الذهبية والقلائد الثمينة والحلل الحريرية واتخذن بيمينهن شمعة الديانة وبيسراهن زيتونة الامانة وغادرن مقصورتهن جذلات محبورات وفي اثرهن العذارى الغواني مبتهجات وهن ينشدن اهازيج الفرح مسرورات موقنات انهن خارجات الى زفاف عريسهن الحمل الطهور

فلما رآهن خدمة العريس في تلك الهيئة اخذوا يتساءلون . من هولاء اللابسات الحلل البيض ومن اين اتين فقيل لهم : هن اللائي اتين من الضيق الشديد وقد غسلن حللهن وبيضنها بدم الحمل .. فلا يجعن بعد ولا يعطشن ولا تاخذهن الشمس ولا الحرّ البتة . لان الحمل الذي في وسط العرش يرعاهن ويرشدهن الى ينابيع ماء الحياة ويمسح كل دمعة من عيونهن (رؤيا ٧)

فيا هنيئاً للعذارى الورعات اللائي بذلن دماء اعناقهن حبّاً لدينهن

وكلفاً بعريسهن وهنّ يقلن « لتمت نفسنا موت المستقيمين. ولتكن آخرتنا كآخرتهم (عدد ٢٣ : ١٠)

الفصل السابع والعشرون

سوق نساء القافلة الاولى

لم يتيسر للمسيحيين الباقين ان يكفوا اعداء الانسانية والدين عن مواصلة شغلهم ويتزلوهم عن نيات قلبهم في شأن استياق النساء. وكثيرًا ما التمسوا بالحاح ولجاجة من اولياء الامر ان لا يعدوا اليد اليهن فحسبوا التماسهم لغوًا . وليلة الخميس ١٥ تموز احاط الجنود بدور اغنياء الارمن ووجهائهم فدخل الى دار كل منهم رجل في يده ورقة نشرها يقرأ ان قد ورد تلغراف عن السيد اغناطيوس مالويان بامضاء كرمه بنت لولي مخو مفاده « وصلت سالمة الى دياربكر لا تقلقوا من جهة المطران فانه موقف بعدُ في دياربكر » فنفر صدّق الاكذوبة والاغلب كذبوها . وبعد مضي ساعتين من الليل اذاعوا ان قد وردت الرسائل البرقية من رجال الارمن يطلبون آلهم الى حلب . فازداد القلق والاضطراب . ولكن الحاذقات النبيهات استيقن ان قد حان الوقت للرحيل . فارسلت السيدة شموني قرينة نعوم جناجي تقول للسيد جبرائيل مطران السريان المجاورة غرفته لدارها : اننا مستعدون للرحيل باجمعنا فاسالك متى شخص الجنود ليخرجونا من دارنا ان ترفع يمينك وتباركنا وتدعو لنا بالتاييد والانتصار. وعند نصف الليل اوقدت السيدة شموني الشموع فاستدل المطران انها وجميع من عندها مستعدون لقبول الحل الاخير. فنهض

الراعي المحبوب والفاهم راكعين يصلون فقرأ عليهم صورة الحلّ وباركهم وودعهم وهو باكٍ . وقبل الفجر اخرجوا السيدة وجميع الاسرة فلحظهم السيد جبرائيل من الكوة وكرر لهم الادعية وودعهم. فخرجوا بلفيفهم وساروا الى شرقي المدينة ينتظرون البقية

واحاط الجند كذلك دار شلمي فاخرجوا جميع من فيه ثم قصدوا دار بوغوص الكبيرة فاذا بالنساء اجمع حاملات الشموع لابسات الثياب البيض نازلات الدرج جذلات . فتعجب الجنود من ذلك وقالوا ما لكن خارجات كذلك كأنكن سائرات الى حفلة عرس شائقة . فقالت لهم الام . اتجهل اننا مستعدات الخروج الى لقاء العريس الحبيب الذي ينتظرنا . ترانا لذلك حاملات المصابيح النيرة حتى اذا شاهدنا الختن مستعدات فتح لنا الباب وادخلنا بترحاب فانذهل الجنود من تلك الشجاعة. وقالوا لا يتيسر لاحد ان يزحزح النصارى عن مباديهم ولو ذاقوا الامرين

ثم ساروا الى دار كسبو وامروا بخروج الجميع دون استثناء . وقصدوا دار جرما وفعلوا كذلك واستاقوهم قاطبة الى باب الصور يقولون ان ثمَّ جحاشاً وحميرًا وعجلات للركب وحمل الاثقال . ثم ذهبوا الى بقية دور الاغنياء والشرفاء. وقصدوا دار السيد اغناطيوس مالويان وفعلوا ما فعلوا بالدور السالفة الذكر. وقد شاء الله سبحانه بتدبير رباني ان تفلت من تلك القافلة حنة قرينة مال الله شقيق المطران اغناطيوس مالويان . ولما حضرت الى ماردين استدعيناها فقصت علينا ما جرى لها وللنساء بنظام وترتيب . واليك التفصيل باوجز ما يكون قالت :

ليلة الخميس ١٥ تموز قرع الباب احد الضباط[1] يقول ان معه نبأ من السيد اغناطيوس الى الورتبيد اوهنيس بوطري ـ وكان الورتبيد في دارنا مذ عشرة ايام ـ فنشر الورتبيد ذلك النبأ فاذا بـه تقول كرمه بنت لولي مخو « وصلنا سلامة لا تقلقوا من جهة المطران . فانه موقف بعد في دياربكر » فمنا من صدقه ومنا من كذبه ودفعنا مجيدين للضابط فذهب . وعند غلس الخميس راينا اربعة جنود على كل باب جنديين واقفين . واتفق ان مسئلة التلغراف شاعت في البلد فجعلت النساء تتوارد الى دارنا للوقوف على الحقيقة . وحُرّج عليهن الخروج منها حتى العصر . فجاء اذ ذاك جماعة من قبل الحكومة لا ادري منهم سوى توفيق الانصاري فقالوا : يلزم ان تستعدوا جميعاً للرحيل . ثم كتبوا اسماءنا فكنا عشرين مع الورتبيد . واطلقوا الحرية للزائرات فرجعت كل الى بيتها

واستلى كبيرهم يقول لنا . ان رجالكم اليوم موجودون في حلب وقد ارسلوا في طلبكم فلا بد من انجاز رغبتهم . غير اننا ننصح لكم ان تدفعوا لنا ما عندكم من الحلي لؤلؤا وذهبا وفضة لاننا نخاف ان ان يغير عليكم شذاذ العرب والاكراد ويسلبوكم اياها . فالخليق بكم ان تستودعونا اياها لنصونها لكم في صندوقنا الامين ؟ ونحولها اليكم في حلب . فدفعنا لهم صليبين وخاتمين وساعة ذهبية وسبحة كهرباء ثمينة . ثم جمعنا ما عندنا من الجواهر واللؤلؤ والذهب والفضة حتى امتلا الصندوق . فاخذوا ذلك كله

(١) هو ابرهيم المربوطيّ مأمور التلغراف ناشر الاخبار الزورية الذي قصد دور الاغنياء ولفق لهم الاكاذيب واستحصل منهم الهدايا الوافرة

وقالوا لنا: خذوا معكم ما يكفي لقوتكم يومين لانكم سائرون في طريق ويران شهر . قالوا هذا وانقلبوا راجعين بالصندوق الى دار الحكومة

وفي فجر الجمعة ١٦ تموز اقبل عشرة جند وعدونا واخرجونا ومضوا يحفون بنا حتى وصلنا الى باب الصور وانضممنا الى سائر النساء والرجال . يكتنفنا ستون جندياً نصفهم خيالة من الوجهاء والنصبين ونصفهم رجالة . اما نحن فركب بعضنا ومشى البقية حتى وصلنا الى تل يبعد عن المدينة زهاء ثلاث ساعات لا ادري ما اسمه . فأمرونا بالجلوس هنيهة لنستريح . وجعلوا يستدعون اربعاً فاربعاً يفتشون مـا عندهن حتى افضت بهم الهمجية والمطامع فحلوا قمط الاطفال وفتشوها واحدا واحداً . واخذوا ما بقي عندنا من الحلي والفضة وملأوها في الحقائب وانكفتوا الى المدينة . فلم يبق معنا سوى قوم منهم ومن الضباط والعسكر الخمسيني . ثم امرونا فنهضنا واخذنا نغذّ في السير حتى شارفنا تل ارمن . فتعبت السيدة تريزيا حماتي والدة السيد اغناطيوس وكلتهن المشي . فوافى احدهم يقول دعوها هنا الليلة وفي الغد تلحق بكم . فسار معها اثنان منهم قدر رمية حجر وما لبثا ان رجعا فتحققنا انهما قتلاها . اما نحن فبتنا ليلتنا تلك في ضواحي تل ارمن

واتفق ان مرّ بتلك الطريق سليمان نظيف بك ابن سعيد باشا الامدي المشهور بمكارم الاخلاق ومحاسن الخلال فعوّل على استحياء بعض النساء واستخلاصهن من براثن اولئك الذئاب . وكانت غايته على ما اكد ان يمضي بهن الى مقرّه ويدرّ لهن الارزاق والمعايش

الفصل الثامن والعشرون

مذبحة نسوة القافلة الاولى من ١٦-١٧ تموز

غير انه قبل الغروب عاد ابن الباشا فيمن معه واستدعوا الورتبيد والرجال الومى اليهم فقاموا اليهم وتبعوهم . فطفقوا يمرونهم وانا اراهم ثم اركبوهم عربة وهم عراة وساروا بهم الى الحفرة القريبة فذبحوهم ورجعوا . وعند ذلك ارتفعت الاصوات وارتجت القلوب ودبّ الفشل فينا جميعاً . فتهددونا بالقتل او نسكت . ثم جعلوا يستدعون اسرة فاسرة يعرون النساء والبنات ويركبونهن العربة الى الحفرة المعهودة فيقتلونهن ويرجعون حالاً . وكانوا قبل القتل يخيرون من اراد الاسلام شفقة عليه . يا للظلمة الكفرة . غير ان الياور اعلن قائلاً قد صدر حكمٌ جزمٌ وامرٌ فصل بقتل الجميع دون استثناء . اما الأكراد فلشديد شبقهم ومزيد حقدهم جعلوا ينتقون من البنات والاولاد الصغار من استحسنوا واستطابوا. ورايت ابن الباشا قد قبض على روزا امراة شفيق ادم وعلى سبع بنات غيرها فما تماسكت روزا ان رفعت صوتها والتفتت تقول للضباط . « ما بالكم يا هولاء صامتين علامَ لا تحرجون على هولاء الاوباش ان يخطفونا .. اما قلتم انكم ان تبقوا على واحدة منا فهلموا انقذونا من يد هولاء الانذال الارجاس واذبحونا كما امرتم » فسارع الضباط وتلقفوها وضموها الى البقية . غير انهم تركوا منيرة بنت الخواجا يونان قرينة فتح‌الله شلمي بيد اولائك الاعلاج فساقها الشيخ طاهر الانصاري الى مكان قريب وارادها على المنكر فلم تطعه ونصح

ريثما يخبو سعير الحرب الضروس غير ان ممدوحاً لعنه الله تصدى لسليمان بك وعرض عليه اوامر رشيد الخبيث الناطقة بوجوب سفك دماء تلك القافلة قاطبة دون استثناء البتة . فقال له سليمان بك . لا يخفاك اني انا ايضاً والٍ ولي من المقام ما لواليك رشيد فذرني انجز رغبتي واحقن دماء من يتيسر لي من هولاء المسيحيين المنكودي الحظ . فما كان من ممدوح الكافر الا ان عربد عليه ساخطاً وقال له اعرض عن رايك والا امرت الجنود ان يقبضوا عليك ويسوقوك قسراً الى دياربكر مخفوراً . فصمت سليمان بك مندهلاً من توحش ممدوح واصحابه وانصاع الى خيمته مستودعاً الامور الى الواحد العدل القهار

وصباح السبت ١٧ تموز امرنا الجنود بالتاهب للرحيل فنهضنا من ساعتنا وسرنا ومررنا بسوق تل ارمن فكبسنا الاكراد الاجلاف وحاولوا ان يخطفوا الفتيات والرضعان من احضاننا فاطلق عليهم العسكر البنادق فتضاربوا وتقاتلوا ساعةً ونحن في القلب ولم نصب باذى حتى بلغنا قرية تدعى عبد الامام

وعند الظهيرة وافى الينا ابن ابرهيم باشا في رجاله وعثمان آغا صاحب عبد الامام واحتفوا بنا . ومكثنا في تلك القرية حتى العصر معللين النفس بالرحيل الى ويرانشهر غافلين عن ان الذين حضروا ما حضروا الا لتهيئة الحفائر واعداد المقابر . وقصد ابن الباشا من كان معنا من الرجال كبطرس جنانجي. وشكر كسبو وفتح‌الله شلمي وبولس مخولي بوغوص وابن نعوم جنانجي والورتبيد اوهنيس وجعل يخاطبهم بما فطر عليه من الدهاء ويلثهم بكلامه ويعللهم بالرحيل والنجاة معاً

لها لتسلم فلم تجبه فسخط عليها وقتلها وعاد بثيابها

اما السيدة شموني قرينة نعوم جنانجي فما كادت تغيب عن عياننا حتى نشموا يعرّونها ويعرون اللائي معهـا فما تمالكت ان صاحت باعلى صوتها وقالت لهم : قبحاً لكم ايها الخالعون ما لكم تغصبونا على ما لا يجوز . كنا نظنكم اصحاب دين وانفة ورحمة وشفقة ولكنه تاكد لدينا ان لا دين في صدركم ولا انفة عندكم . والا فمن حلل لكم ان تعرونا . أما تقولون ان اعراض النساء اعراض السلطان من مسها مس السلطان . فما لكم اذاً تقترفون ما لا يحلّ انكم في الحق غليظو الرقاب متوحشو الطباع منغمسون في ردغات المخازي منصبون على الفحشاء والنجاسة مع انه تعالى « يامر بالعدل والاحسان وايتـاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون [سورة النحل] فتباً لقلوب ما سلم عليها اللين ولا ولجتها رحمة ولا عرفتها رقة — ثم استتلت تقول قد صدر الامر بقتلنا فاقتلونا غير مكشفات واخلصوا من وجوهنا ولا تنتهكوا اعراضنا . فحنق عليها المّلا خليل وقال لها اصمتي يا سفيهة اننـا عرفنا وتحققنا انك خائنـة . . . فقاطعه الياور واصدر الاوامر الى الاجلاف ان يدعوا بقية النسوة مستورات فساقوهن بقمصانهن الى البالوعة واعملوا فيهن البنادق والسيوف والخناجر والعصي وذبحوهن وقتلوهن دون رحمة وشفقة . وظلت امينـة بنت سعيد مخولي بوغوص ما بين دواليب العربة مغمياً عليها فظنوها ميتة وتركوها في موضعها

واخر الجميع استدعوني لي ولجميع آل السيد اغناطيوس مالويان

الى مكان المذبحة فرأينا اولئك الكفرة يجرون جثث القتلى وهي مخضبة بالدماء الى تلك البالوعة فيكفتونها فيها ويعودون. فلما بلغت نوبتي عرضوا علي الاسلامية فانكرت عليهم ذلـك ووضعت ابنتي ازنيف في الارض امامي وضممت ابني البير الصغير الى حضني وتأهبت للعذاب . فالحوا علي ان اسلم وانجو فلم ارض . فطفقوا يضربوني بخناجرهم زهاء عشرين ضربة حتى أغمي علي وغبت عن حسي ومـا عدت اعرف احية انا ام ميتة . ثم سحبوني من قدمي والقوني عريانة فوق الجثث . وبعد مضي ساعة انتبهت فلم ارَ طفلي آلبير اما ابنتي ازنيف فكان صياحها وهي على ذراعي العربي يجرح قلبي . وكنت اسمعها تقول : اريد الذهاب عند امي . فحرت في امري وفاضت احشاي تعطفاً على ابنتي وامسيت كالمجنونة لا ادري اين انا ومـاذا اصنع . وكان اولئك الاشرار الكفرة قد انكشفوا عنا ولم يبقَ سوى عربي واحد وجندي واحد. فقال هذا لذاك هلم نوقد مصباحاً نفتش عمن هي حية لنقتلها . فسارا الى احدى النساء وهي عـلى اخر رمق ليقتلاها فاذا بها تقول لهما ان عفوتما عني اعطيتكما عشر ليرات . فحلا ضفيرتها واخذا المبلغ وقتلاها. ولما وصلا الي التمست منهما ان يطلقا لي الحرية لاذهب عند ابنتي . اذ كان انينها يزعجني جداً ويولني : غير ان العسكري ضربني عـلى فلق راسي ضربات شتى حتى غبت عن وجدي ثانية فتركني يظن اني متّ وانصرف

وبعد مضي ساعة افقت تكرارا وسمعتُ انين ابنتي وهي مع رجل عربي اسمه جمعه فاستدعيته وقلت له: خلاك الله خلني واصحبني مع ابنتي الى بيتك . فقال أانت بعد في قيد الحياة .قلت لا ادري

ارجوك ان تاخذني اليك . فدفع الي عباءته فتسترت بها وتقفيته والدماء تتدفق من راسي وجسمي كله حتى وصلت معه الى قرية عبد الامام ولما دخلت الى بيته فرش لي ولابنتي فنمت حتى الصباح فاقبل الجيران يقولون لجمعه اذهب بها الى موضع صواحبها واقتلها. فقال بل تبقى في جناحي وحمايتي . ثم انصرف الى المقتلة ينبش الجثث فعثر على اربع ليرات فرجع بها مسرورًا وقال قد عولت ان اعالج هذه المرأة حتى تستصح وتعود لها القوى . فاشترى خروفاً وذبحه ولفني بجلده اربعاً وعشرين ساعة ثم غسل جسمي واستحضر نوعاً من الملك ودواء آخر مزجه بالسمن البقري ودهن به جسمي وزاول ذلك مدة ثمانية ايام حتى اندملت جراحاتي وثابت الي قوتي ولم اخرج خارج بيته الى اخر كانون الاول ١٩١٥

الى هنا ما نقلته لنا حنة المذكورة التي حضرت الى ماردين في عاشر تشرين الاول ١٩١٦ وافادنا عبد المسيح سفر مختار السريان بماردين انه في تشرين عام ١٩١٥ سار في جملة من العملة الى عبد الامام وقصد المقتلة فاذا هي عبارة عن وادٍ منخفض الى جانب نهر الزركان ممتلئة كلها من الجثث فيها عظام بلحومها وقد جفت ونشفت

على هذا النواع جرت مقتلة الورتبيد والرجال والسيدات والاطفال والرضعان الماردينين يوم السبت سابع عشر تموز وبلغ عددهم نيفاً ومائتين وستين . وغدا تذكار قتلهم واستشهادهم مثالا لمن بقي منهم جليلًا يتباهون به مفتخرين . ويصرفون جهدهم في الثبات والغلو نظيرهم بالدين المتين . ويقصدون ان يخلدوا ذكرهم الطيب

في قلوبهم ويتناقلوا محاسن اعمالهم وحميد خصالهم هم وجميع ذراريهم على تتالي السنين

اما انت ايها الاخ المسيحي فلتجد عيناك بالدموع على اللاءي كن عفيفات محصنات لازمات اخدارهن في حياتهن وقد حصلن وقت قتلهن في الفلوات شريدات طريدات معريات

ونختم هذا الفصل المؤثر المفجع بما كتبه احد ايمة المسلمين قال واجاد : يا لله ! ماذا فعلت النسوة والصغار؟ هل حاربوا الاتراك ام هل قتلوا احدًا منهم . والا فما جريمتهم – جريمتهم انهم ارمن لا غير – اتعد هذه جريمة ايها المسلمون بالله عليكم فكروا قليلًا . ما ذنب هولاء التعساء . فلو فرضنا محالاً ان رجال الارمن كانوا اهلًا لهذه المعاملة فهل يجوز ان تعامل النسوة بهذه المعاملة التي تأبى الوحوش الضارية ان تعاملهن بمثلها . اما قال الله تعالى في القرآن الكريم « ولا تزر وازرة وزر اخرى » اي لا احد يجازى عن اخر والا فماذا فعلت النساء بل ماذا فعل الاطفال . اعند رجال الحكومة التركية دليل ولو ضعيفاً يجيز لهم هذا العمل البربري . كلا .. ايجوز لهولاء الاغرار الذين يدعون انهم هم اركان دولة الاسلام والخلافه وهم حماة المسلمين مخالفة اوامر الله . مخالفة القرآن . مخالفة الانسانية . واللهِ انهم افتعلوا امرًا تأباه الاسلامية وجميع المسلمين وجميع امم الارض من اسلام ونصارى ويهود ومجوس . والله انه لامر فظيع لم يسبقهم لمثله احد من الامم التي تعد نفسها متمدنة

ونضيف الى ذلك ان القرآن يشهد للنصارى بانهم ذوو رحمة ورأفة فقد ورد في سورة الحديد « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوا

عيسى رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله » فتجازى الرحمة بالقسوة والرافة بالتوحش والعفة بارتكاب الفواحش . على انا لا نكتفي بذلك بل نضيف اليه ايضاً ما اورده ابو الفداء في تاريخه [جز ١ ص ٦٦] نقلًا عن جالينوس قال « يظهر من النصارى افعال مثل افعال من تفلسف بالحقيقة وذاك ان عدم جزعهم من الموت امرٌ قد نراه كلنا وكذلك ايضاً عفافهم . . فان منهم قوماً رجالاً ونساء ايضاً قد بلغ من ضبطهم لانفسهم في التدبير وشدة حرصهم على العدل ان صاروا غير مقصرين عن الذين يتفلسفون بالحقيقة . . . »

الفصل التاسع والعشرون

تتمة سوق النساء . اسرة معماربلشي ودقاق . فرض الفي ليرة على طائفة السريان . مذبحة الارمن عند نهر كوكسو . بيع القوافل . شهامة عبد القادرجلبي الفاشوخ

ولما ذبح الاعداء اصحاب قافلة النساء الاولى ولم يذروا منهم احداً انقلبوا مسرعين الى البلد ليواصلوا العمل اذ كان ممدوح الخبيث يهيئ لهم الغنائم سلفة فسلفة . واذاع انه معوّل على سبي نساء السريان الكاثليك اذ كان عارفاً ان لكلتا الطائفتين الارمنية والسريانية علائق مع بعضها وان اولئك يصونون عند هولاء شيئاً من ذهبهم واموالهم وامتعتهم فلا يبقى والحالة هذه لرجال الحكومة شيء. بناء عليه اصدر الامر يوم الاثنين ١٩ تموز الى اسرة معماربلشي ودقاق بالتاهب للرحيل . فدبت المخاوف في قلوب السريان وايقنوا

انهم سيهجرون وطنهم كاخوانهم الارمن

اما السيد جبرائيل مطران السريان فاكبت عليه الهموم واقلقته الافكار وبات ليلته تلك ساهداً يفتكر في انقاذ جماعته المحبوبة من اعتداء الاشرار فاوفد في طلب ممدوح ليتشاورا في الامر وقال له اراك قد اخلفت في كلامك فانك قلت لي في الامس ان نسوان السريان لن يهجرن وطنهن فما لك أجليت اسرتين سريانيتين بالرغم عن العفو الصادر في حقنا . قال ممدوح يلزم ابناء جماعتك ان يؤدوا الفي ليرة ذهبية والا تراجعت الامور الى ما كانت عليه وصدرت الاوامر بابعادهم كالارمن . فصرّح له الراعي النبيل بفقر ابنائه وعدم كفاءتهم وتيسر له بعد اللتيا والتي ان يقنعه بنصف ذلك المبلغ ما عدا ما ابتزه هو من الاسر المثرية على حدة كقولك اسرة جرباقه ونصري جمال وروفائيل جمال وتبي وقاووغ الخ ففرض السيد جبرائيل على كلٍّ مبلغاً وفوّض الى الاب لويس الغيور ليجول ويجمع الذهب سراً ويدفعه لممدوح وتمكن بتلك الذريعة ان يكفه عما اضمر من السوء والعدوان على السريان . غير انه بعد ما رحّل الاسرتين السريانيتين اقسم بالطلاق انه يرجعها ولكنه كذب كعادته واستاقها مع ثمانين نسمة وتبعتهم قافلة ثانية كان فيها الفتى يعقوب شلمي فقافلة ثالثة من جملتها بيت عين ملك وبلغ مجموع الثلاث نيفاً وثلاثمائة

وعند خروج القوافل من البلد كان ينزل ممدوح واصحابه وينتشون الاوعية والاحمال والثياب وياخذون ما يصادفون من الذهب والفضة وسائر الحلي ويعودون . ولما وصلت القوافل الى دنيسر عند تل ارمن اغار عليهم اعلاج الاكراد واخذوا يطلقون الرصاص

ليهلكوهم كالذين سبقوا فاعترضهم القومسيز وبلغهم ان الحكومة قد حرجت ذبحهم فانكفتوا راجعين الى قراهم وسار المسبيون الى راس العين سالمين وركبوا القطار الحديدي الى حلب[1] فوزعتهم الحكومة في بلاد سوريا كحمص وحماه وبعلبك وزحله والنبك ودمشق ومجدل الشمس وعينطورا (بلبنان) بل لفظت منهم قسماً صالحاً الى طفيله على طريق الحجاز · ذلك لتخلص من اعتدائهم على حقوقها وتحاملهم عليها اذ كانوا مزمعين ان يقوضوا اركانها الابدية القرار

وتواترت مذ ذاك قوافل النساء والصبيان من بلاد ارمينية الى جبال ماردين وباريها ففي ٢٢ تموز على ما اخبرنا الياس بن حنا استيو الارمني حشد الخصوم قافلة نسوة وفتيان وفتيات في بالو بلغت نيفاً واربعة عشر الفاً وفوّضوا الى الياس المذكور والى رفاقه اسكندر فروجي وجرجس حداد ويوسف شامية والياس فرا وغيرهم من السريان اليعاقبة ان يحرسوهم · ولما وصلوا بهم الى دياربكر ثار بهم جم غفير من العسكر الخمسيني وتكالبوا على البستهم واشيائهم واحاطوا بهم من كل صوب واستاقوهم جميعاً الى نهر كوكسو · وكانوا في كل مرحلة يفرزون منهم جماعة ويبعدون بهم ويقتلونهم

(١) اعلم انه لما وصلت النسوة المسيحيات الى حلب صادفهن كرتير ونيفاجه الطبيبان الالمانيان واستخبراهن عما جرى في بلادهن فأفدنهما عن ذلك فنشرا تلك الفواجع والفظائع بالطبع في المانيا فبادر اولو الامر واحرقوا تلك النشرات وارسلوا في القبض سرًا على الطبيبين الصادقين فتملص كرتير الى سويسرا واستيق نيفاجه الى الاستانة وشنق

ويعودون

ولما بلغوا بهم الى النهر المذكور انفجر عليهم عشائر الدنبلية والشيخانية والسراكجية والبارافية وجميع العشائر المتوطنة في براري دياربكر السوداء واختلطوا مع العسكر فاستلبوا اثيابهم وامتعتهم وخطفوا الفتيات والفتيان واعملوا الضرب في بقيتهم مدة يومين كاملين وتركوا جثثهم على شاطىء ذلك النهر وانكفتوا الى قراهم بالغنائم والاسلاب · اما الشبان النصارى فلما راوا ذلك خاطروا بنفوسهم وانهزموا وشخصوا الى ماردين واحتجبوا عن عين الخصوم ولما ساقوا اهلهم ساقوهم معهم الى حلب وبعلبك وطفيلة وغيرها

ويوم الجمعة ٢٣ تموز ابصرنا قافلة كبيرة قادمة من دياربكر يحيط بهم اجلاف الاكراد واعلاجهم فكانوا يستذلونهم ويجيعونهم ويعرونهم ويتعبونهم وكانوا يكلفونهم قبل ان يذبحوهم ان يهجروا ايمانهم والا فيسارعون الى قتلهم قبل اصحابهم · وبالنتيجة نقول ان الجبال والبراري امست مدفناً لعامة المسيحيين · واخبرنا ثقة ان الجنود كانوا يبيعون القوافل للاكراد باسعار متهاودة جداً ـ ما احلى من العسل · الخل بلا ثمن ـ وكان الاكراد يتزايدون عليها في الاثمان كأنها سلع او بضائع مرّ عليها الزمان فاقتضى بيعها سريعاً وجزافاً لئلا يخسر اصحابها الكفار من راس المال · فباعوا والحالة هذه قافلة بالف ليرة واخرى بستمائة واخرى بخمسمائة الخ اما الاكراد فكانوا بعد دفع المبلغ يسوقون الغنائم الى البراري والوديان فيطبقون عليهم ويعرونهم ويرمونهم بالرصاص ويبقرون بطونهم ويسلتون امعاءهم ويفتشون الخناجر والافرشة والثياب حتى الاحذية لئلا

يخسروا شيئاً من راس المال فكانت غالباً تجارتهم رابحة وكفتهم راجحة ويا ويل من كانت له سن ذهبية فكانوا يقلعونها قبل ان يقتلوا صاحبها او صاحبتها

ويوم الاثنين ٢٦ تموز ساقوا قافلة اخرى من نساء ماردين في الشيوخ والصبيان والرضعان كانت معهم اسرة كجو الارمنية وسار معهم لسبيها عبد القادر بن يحيى جلبي الفاشوخ ليحافظ عليها ويكف عنها ايدي الاعداء ويحقن دماءها ولما وصل الجميع الى القصور تبعتهم قافلة ثانية فثالثة كان معهم بعض الحمير والجحاش والبغال لنقل الاثقال. ولما شارفوا دنيسر خرج الاكراد كعادتهم الى استقبالهم فخاف النصارى ولاذوا بعبد القادر والتمسوا منه ان يصرف العناية في كشف الاكراد عنهم . فبادر عبد القادر نحو قادي عمشاكي والشيخ قاسم ابن الشيخ ايوب الانصاري ماموري القوافل وقال لهما : ارغب ان تصدروا الاوامر الى الاكراد ليبتعدوا عن النصارى . فقالا ان اسلحة العسكر الذي معنا قليلة لا توازي ما مع الاكراد من البنادق ومن ثم فيصعب علينا ان نقاومهم . فالحّ عبد القادر في الطلب وارسل الى ماردين في استحضار طائفة اخرى من العسكر في عدة من الاسلحة ليقاتلوا الاكراد ويدحروهم . ولما وصلوا الى قرى الكيكية وافى ابنُ بلالو المشهور في قوم من الداشية وابن كاصو في جماعة من عشائر ديركه وحاولوا ان ينتكوا بالنصارى ويستلبوا الغنائم . وما نشبوا في اطلاق البنادق حتى قابلهم العسكر فانهزموا وبات النصارى ليلتهم في قرية محمد علي آغا وعند الصباح بعث المذكور خمسين من اصحابه ليصونوا المسيحيين ويردعوا عنهم الاعلاج

فساروا معهم الى راس العين واوصلوهم سالمين مطمئنين . كل ذلك بهمة عبد القادر جلبي ومساعيه . ولولاه لفتك الاكراد باغلبهم انْ لمْ نقل بكلهم وكان عدد المسيحيين زهاء الفين وخمسمائة نسمة ركبوا القطار من راس العين الى حلب وسارت جماعة منهم الى دير الزور وجماعة الى الشداده

وفي سلخ تموز ساق الاعداء قافلة من ماردين زاد عددها على المائة كان في جملتهم بيت بابيك وكرابيد وحنجو . ولما وصلوا بهم الى بئر طاوا عند حرّين تكولوا عليهم وذبحوهم وحزّوا رؤوسهم والقوهم في تلك البئر . اما عبد المسيح حنجو فان جثته لضخامتها لم يسعها فم البئر فاضطروا لعنهم الله ان يفسخوها شطرين ويلقوها في تلك البئر . وقد اكد لنا ذلك سعيد ابن القدسي وانيس وكان احد المشكويه قد استحياه وتركه لديه في قرية تومكه وظل عنده سنتين كاملتين ثم انهزم الى ماردين

وواصل اعداء المسيحيين شغلهم في ماردين فكانوا يجمعون النساء والاولاد ويحشدونهم في كنيسة الارمن حتى اذا بلغ عددهم حد الكثرة ساقوهم معاً دون تكلفة ومشقة

ومما يستحق الذكر انهم ابعدوا الشيخ الوقور توما شيطو وهو في السن الثمانين ولم يذكر اء كبار المسلمين اصحابه خدمه الجمة واتعابه بل لم يبقوا على قرينته العجوز وهي سريانية بل ساقوها كليهما مع غيرهما الى حماة بعد ما فتكو بنجليهما المحبوبين الياس وسعيد

الفصل الثلاثون

اعتكاف الرهبان الافراميين

تفرد رهبان السريان الافراميون اثناء القافلة بالاعتكاف ومواصلة الصلوات استجلاباً لمراحم الله الرؤوف على المسيحيين . وليكف عنهم ضربات عدله الرهيب. ولما قبض على السيد اغناطيوس والارمن في ثالث حزيران بادر رئيس الدير والرهبان الى الكنيسة يعفرون جباههم امام حمل الله يستمنحونه العفو والغفران . وجعلوا يفتنون في اقامة الادعية المتواترة كتلاوة التساعيات والمزامير الداودية . وصلوة السبحة الوردية او صلوات اخرى خشوعية .حتى اذا صار العصر اجتمعوا قاطبة لرياضة درب الصليب ثم خرجوا من الكنيسة يتنفسون الصعداء. ويتاهبون لقبول ما يسمح به سبحانه وتقدست احكامه

وكان المقدسي يوسف ارملة يختلف اذ ذاك الى الدير عند شقيقه حذار ان يعثر به الخونة فيقبضوا عليه ويضموه الى رفاقه في السجن . وصباح الاربعاء تاسع حزيران نهض يصلي في بيته ثم قام الى صحن الدار فكشف راسه وفتح ذراعيه يقول : « اللهم اني استرحمك في شأن اخي القس اسحق واتوسل اليك ان تجعلني فداه فاني اعذب انا واقتل اعذب لقلبي من ان يعذب هو او يقتل » قال هذا واستودع امه وولديه وسائر ذويه لحماية الله وعنايته واقبل الى الدير كعادته . وعند الظهيرة وافى ضابطان او عفريتان خبيثان يفتشان الحجر والغرف والكنيسة . وعند عودتهما التقيا بيوسف في

الساحة الجوانية فاخذا يحادثانه بالتركية الشيطانية فعرض عليهما تذكرة الشماسية فنبذها الضابط ومزقها ثم التفت يقول له « كال » تعال وكان اخوه القس واقفاً من بعيد يترقبه ليقف على النتيجة . فما سمع لفظة (كال) حتى خفق فواده وجاشت نفسه وترددت الدموع على خديه . وتعذر عليه ان يدافع عنه او يحميه او ينقذه من براثن الاسدين المفترسين لئلا يصح فيه المثل « من تحكك بالعقرب لسعته »

فسارا به الى السجن فاوثقاه مع اصحاب القافلة الاولى واستاقاه سحر الخميس عاشر حزيران. لا خلف الله عليهما ولا على اصحابهما

وصباح الجمعة ١١ حزيران اوفد السيد جبرائيل تبوني الى رئيس الدير رسالة اليك نصها :

الى ابناء نيابتنا الاعزاء حضرة الخوارنة والكهنة ولفيف الشعب الموقرين البركة والسلام

لما كانت هذه الاوقات الحرجة التي شاء الله ان يفتقدنا بها قد جعلتنا كسفينة تتلاعب بها امواج المحن والاخطار من كل صوب حتى صرنا لا ندري ماذا يحل بنا في كل ساعة راينا ايها الابناء الاعزاء من اقدس واجباتنا الرعوية ان نوجه الحاظنا اليكم انتم وديعتنا بل فخرنا امام الله . لئلا تتفرق وحدتكم وتزيغ سفينتكم عن منار الايمان الكاثليكي المقدس. وعليه نتلو على مسامعكم

للمرة الاخيرة كلام الله . وكراع بل كاب حنون نناشدكم باحشاء رحمة ربنا يسوع المسيح ان تتمسكوا بعروة ايماننا المستقيم والطاعة للكرسي الرسولي ولغبطة بطريركنا الجزيل الطوبى والاتفاق والمحبة بين بعضكم . وان تستمدوا لبذل النفس والنفيس صيانة لهذه الوديعة الثمينة التي نسلمكم اياها خالية من كل غش وضلال لتكونوا كعبيد ينتظرون سيدهم متى يرجع من العرس حتى اذا جاء وقرع يفتحون له للوقت

هذا وبينا انا خاضعون الخضوع التام لكل مـا ترسمه العناية الالهية نعانقكم فردًا فردًا معانقـة احنّ الاباء لاولادهم المحبوبين . ونودعكم الوداع الاخـير ونستودعكم في حمى قلب يسوع الاقدس وامه الطاهرة مريم العذراء محاميتنـا . فهما يكونان لكم ملجأً وحصناً امينا ليفرجا عنكم كروبكم ويقصيا عنكم وعن اولادكم وذويكم النوائب والاخطار المحدقة بكم . ونسالكم ان تقدموا التضرعات والصلوات اليه عزّ وجلّ ليغفر لنـا خطايانا ويجملنا ان نقضي حتى النفَس الاخير من حياتنـا في نعمته ومحبته

واذا نفذت فينا احكام المولى باي نوع كان فاننـا نعين حفظاً للاتفـاق حضرة الاب الفاضل الخورفسقفوس افرام احمر دقنه الموقر لينوب منابنا حتى ترد اوامر الرؤساء في تدبير شؤونكم اجمعين . فعليكم ان تخلصوا له الطاعة والاحترام وتبذلوا بعضكم لبعض المحبة والاكرام

عن قلاية النيابة البطريركية السريانية بماردين ١١ حزيران ١٩١٥

✝ ثاوفيلس جبرائيل تبوني مطران بطنان

والنائب البطريركي بماردين

ولما قرئت الرسالة في غرفة الرئيس على مسامع الرهبان استيقنوا باجمعهم انهم سيصيرون عاجلًا او آجلا الى ما صار اليـه اخوتهم الكهنة والجماعة فراحوا يهيئون ذخيرة السفر ويعدون الزاد الاخير ليحظوا عند ربهم بالقربى ويفوزوا بالغبطة

على ان المطران جبرائيل هُدد دفعات شتى بالقبض والسوق والقتل كما سترى ولكن الله انقذه . واصيل ذلك اليوم وافى الى الدير ثلاثة ضباط وامروا ان يجتمع الرهبان في غرفة الدرس فكتبوا اسماءهم ولزموا الصمت وهم يحسبون الف حساب لما سيكون . فاستخبرهم الرئيس عما جرى لاصحاب القافلة الاولى . فافادوه ان قـد وصلوا الى شيخان سالمين فذبحوا لهم الذبائح وطبخوا لهم ارزًا ولحماً فاكلوا وشربوا ثم توجهوا الى دياربكر ليستنطقهم الوالي فالخائن يزجه في السجن اما من رفعت عنه الشبهة فيعيده الى بيته فلم يثق الرهبـان

بكذبهم وخزعبلاتهم لعلمهم الوكيد انهم قتلوهم وذبحوهم بجملتهم . وهم لكذلك اذا بعشرة من البوليس يتقدمهم القومسير قد اقبلوا وطفقوا يطوفون الغرف والسطوح اكبادهم سوداء وشرارات الحقد والدهاء تقدح من بين عينيهم ولما وصلوا الى باب الغرفة التي كان الرهبان ضمنها صاحوا بهم فخرجوا فقال لهم كبيرهم اياكم ان تخفوا عندكم ارمنيًا واحدًا والا قبضنا عليكم وعاملناكم اجفى معاملة . قال له الرئيس ليس عندنا سوى هذا — واومأ الى حنا نقط المعتوه — فاذا شئتم فخذوه . فحدق اليه القومسير فتبسم حنا كعادته فتركه وانصرف هو واعوانه

وواصل الرهبان عملهم وثابروا على الطلبات والادعية . والجنود يجولون في المدينة ويقبضون على من يشاهدون من قسان وشمامسة وعوام . وتواترت اذ ذاك اخبار الاكاذيب وشاعت التلفيقات كقولهم ان جيوش الروس دوخوا ارضروم ووان وبتليس وبلغوا سعرد وشارفوا دجلة وعما قليل يكبسون دياربكر ويوافون الى ماردين وينقذون النصارى من المعاطب والمهلكات . فكان ذلك كله اضغاث احلام . وما فترت الحكومة تقبض وتسجن وتسوق وتقتل .

ويوم الاحد رابع تموز وافت قافلة جرارة من بلاد ارمينيه كان عددها فيما قيل خمسين الفًا ولم يبق منهم منذ وطئوا ارض دياربكر السوداء حتى وصلوا الى ماردين سوى عشرة الاف [هنا ص ٢٦٦] فقتل من قتل وسبي من سبي وبقي من بقي . وكان اغلبهم نساء واطفالاً وشيوخًا . ولما وصلوا الى باب البلد الغربي احاط بهم الضباط وتابور من العسكر مبرطمين ساخطين وتهارشوا

عليهم ككلاب على الفرائس وانتقوا من بينهم من حسن بعينهم الشريرة واستاقوا البقية الى الدير فكردسوهم كتيبة كتيبة كالدواب وكوموهم كومة كومة في ساحتي الدير البرانية والجوانية . وحرجوا على الرهبان الحادثة معهم ثم اقبل جماعة من العسكر الخمسيني يجولون بينهم ويتكولون عليهم ويلكزونهم باعواد الحطب ويصدغونهم بالحجار ويصقرونهم بالعصي ويلمقونهم بالاكف ويخطفون من بينهم من استحسنوا من البنات والبنين وكان ضجيجهم وعجيجهم يفتت الاكباد

اما مسيحيو البلد فما سمعوا بقدومهم حتى فاضت احشاؤهم تعطفًا فاحضروا الوان المآكل وانواع الحلواء فاقتسموها بينهم شاكرين لاصحاب الخير والمعروف . وقد أحصي ما اتى به المسيحيون من المخاضب والاطباق المملوءة من ضروب اطعمة البلد « كالكتل والكبة والبرق والرز والبرغل والمشوي وما يتبعها من الخبز والجبن والزيتون والزبيب والبصل والتوابل » فبلغ مجموعها نيفًا ومائة وعشرين مخضبًا وطبقًا . ذلك دليل على حب المسيحيين لبعضهم وتفانيهم على عمل الخير واصطناع المعروف . اذ كانوا يؤملون البقاء في بيوتهم . وفاتهم انهم بعد ايام قلائل سيعاملون كهولاء المنكودي الحظ ويعذبون ويقتلون نظيرهم

وما مكث سبايا الارمن في الدير يومين حتى وافت شرذمة من الجند والعسكر الخمسيني متنغرين والقوا فيهم صيحة مرعبة ارتجت لها افئدتهم وانحلت قوتهم فاستعجلوهم على الرحيل . وكان بينهم شيخ هرم قطعت عضده فحاول الفرار فلم يقدر فضربوه فخر قتيلًا

وعلت اذ ذاك اصوات البكاء والنحيب وقامت القيامة وتغلل الجنود ما بينهم يعملون فيهم اوجع الضرب حتى اذا بلغوا الى الباب الخارجي استخاروا من اشتهوا . ولم يبق سوى عشرة من فتيان وفتيات مكنعين بايدي القوائم فصفقوهم وصدغوهم كأنهم يودعونهم وتركوهم على اخر رمق وانقلبوا . ومضوا بتلك القافلة في الهاجرة الى الغرس فتكلوا عليهم وقتلوهم عن بكرة ابيهم واحتووا على ما بقي عندهم من الثياب والمتاع والمال وانقلبوا راجعين الى البلد مسرورين « فليضحكوا قليلًا وليبكوا كثيرًا جزاء بما كانوا يكسبون » [سورة التوبة]

وكان المسيحيون في قلق متواصل ينذرون النذور ويقدمون الهدايا للكنائس ويلقون فيها التقادم وينصرفون . وفي ١٤ تموز انجلت الدسائس وأعلنت المضمرات فاصدر بدري التصرف الاوامر بسوق النساء الارمنيات واستاقوا معهن من السريان ايضاً اسرتين شريفتين. ونادى المنادي يحرّج على بقية المسيحيين ان يصونوا لديهم شيئاً من اموال اقاربهم وانسبائهم

غير ان النساء اللاتي كن يختلفن الى الدير التمسن بلجاجة من الرئيس ان يتنازل ويقبل منهن الهدايا فرفض الطلب . فبالغن في الالحاح فراح بعض الرهبان نظرًا لرقة قلبهم وتعطفهم يتوسلون الى رئيسهم ليقبل شيئاً من تلك التقادم والحلي فلم يصعد بيده الا قبول الطلب . فتأتى من ذلك ان جملة من السريان والارمن وضعوا عنده امانات وودائع من حلي وذهب وفضة من جملتها اربعمائة ليرة ذهبية وحليّ لاسرة قاووغ السريانية

واتفق ان ممدوحاً الداهية شعر بذلك . ولما كان صباح الاثنين ٢ اب والكنيسة غاصة بجماهير المؤمنين احاط بالدير شرذمة من الجنود يتقدمهم ممدوح وهرون فانبثوا في الاروقة وعلوا الاساطيح وتفرقوا في ساحة الدير ينتظرون خروج الرهبان من الكنيسة . فاستحوذت عليهم الرعبة وشملتهم الحيرة . وانهى ممدوح امر الى جميع الذين في الكنيسة ان يلزموها . ثم استدعى الرئيس وقال له : بلغني ان عندك مالاً وذهباً كثيرا للارمن فادفعه الي والا عاقبتك وعاقبت رهبانك . فانكر الرئيس ذلك بتاتاً . فقال له ممدوح لا مندوحة لك من الاقرار بما عندك وتسليمه الي والا قتلتك . فانكر الرئيس تكرارا . فارسل ممدوح في طلب السيد جبرائيل لعله يتلافى الامر فيغمض عن الحاق السوء بالرئيس ورهبانه. واغتنم الفرصة حين ذاك فاستدعى الرهبان الى غرفة الدرس ودوّن اسماءهم فكانوا سبعة كهنة واربعة عشر راهباً . ولما وافى المطران جبرائيل انفرد بالرئيس واستنبره عما لديه من الودائع واشار عليه ان يدفع مبلغاً لممدوح (على السكت) فيغمض وينكفت راجعاً . بيد ان الرئيس اصر على رايه وانكر مدّعى ممدوح على الاطلاق متوهماً انه يستحق كلامه ويصدقه . بل رفض ايضاً مشورة الراعي الفطن ولم يعبأ بها . والحاصل انه بعد اخذ ورد كثير عاد المطران الجليل الى الكنيسة . فامر ممدوح للحال ان يتهيأ الرهبان جميعاً فاصطفوا اثنين اثنين واكتنفهم العسكر واستاقوهم الى السجن

الفصل الحادي والثلاثون

الرهبان في السجن

خرج الرهبان من الدير اثنين اثنين لازمين الصمت مطرقين الرؤوس الى الارض . والافكار آخذة منهم مأخذها فسار بهم الجنود في الجادة العامة ليراهم الناس فيفرح الاعداء والخصوم ويغتم الاصحاب والاهل . وتبادر الى ظن بقية النصارى الخائفين ان النيران تسعرت من جديد وانه كما قتل الارمن يقتلون . فلزم كلٌ بيته وجلاً مذعوراً وطفق يجأر الى الله تعالى ليحمي الرهبان وينعم عليهم بالنجاة

ولما وصلوا الى مقام الحكومة امروهم ان يجلسوا على الارض في الساحة الداخلية . وجعلوا يفتلون شاربيهم ويتجهمونهم . ويترصدون الفرص ليبردوا بهم غليلهم . ويشبعوا منهم مطامعهم اذ كانوا بعد جائعين الى المال عطاشاً الى سفك الدماء . اما ممدوح فسار حالاً ليبشر بدري المتصرف بما افتعل . وحضرت اذ ذاك والدة القس اسحق وشقيقته الى الشباك فقام ليراها فزجر عليه احد الجنود ورفع يده ليضربه . فما كان من القس الا ان رجع للحال صامتاً وخائفاً . وعادت امه واخته باكيتين مايوستين . اما الرئيس فاخذ ورقة يكتب فيها فما لمحها احد الوقوف المتحمضين حتى ابتدر من فوره وخطفها وانصرف بها توّاً الى بدري فاذا بها كلمة « طاولة » وما ادراك ما الطاولة . فان الاعداء شادوا عليها قصوراً شاهقة وعلقوا عليها آمالاً فسيحة واسعة . فارسل المتصرف حالاً في استحضار الرئيس فاستنطقه

وامره بالرجوع الى الدير واستخراج ما اديه من الذهب والفضة وسائر الحليّ . فنزل به ممدوح وانتقى من الرهبان اصغريهما وسار بهما وبالرئيس وظل الرهبان مستقرين بمكانهم . فاقبل احد الجنود يقول انهضوا واتبعوني الى السجن . وعند الباب فتشوهم واحداً واحداً ودكموا هذا في صدره وكفخوا هذا على راسه وقبضوا على لحية الاخر ونطحوا غيره بجاق حنجرته وكفتوهم قاطبة الى اسفل والفوا عند احدهم شمعة فقالوا يا الك من لئيم فانك سبقت فاعددت اللوازم للمغاور . ثم حشروهم في غرفة واغلقوا الباب وحرّجوا عليهم الخروج

وكان اذ ذاك في السجن البادري دانيال الكبوشي والياس بعبوصي ونصري حمال ونعوم نجله وغيرهم من النصارى . فجلس الرهبان مصطبرين منتظرين ما يكون من امر الرئيس وامرهم .

اما ممدوح فسار بالرئيس والراهبين الى الدير وقصد غرفة الرئيس وجلس وجلس الرئيس ايضاً . فقال له ممدوح بالتركية والراهب فرج الله منصوراتي يترجم

- يلزم ان تدفع لي كل ما عندك من الذهب والحلي
- ليس عندي شي مما تقول
- الم تدفع لي ذلك قتلتك كما قتلت مالويان ومات
- فأوجس الرئيس خيفة وقام الى صندوق المكتبة ودفع لممدوح بضع عشر ليرات ظاناً انه يكتفي بها وينصرف
- ممدوح : ما هذا . انا اريد الليرات الكثيرة الموجودة عندك
- ليس عندي شي.

— عندك ودائع شتى ثمينة ولا مناص لك من دفعها الي

— قلت لك ان لا شيء عندي

— فنهض ممدوح مغضباً الى المكتبة والقى بالكتب الى الارض فاذا بصرر وعقد وعلب فيها كثير من النقود والحلي والجواهر . ثم التفت يقول للرئيس . ما لك تموه علي الامر . اليك الودائع والامانات التي ابحث عنها

— لكن بها ودائع تخص السريان لا الارمن

— وانا افتش عن هذه وعن تلك ايضا

ذلك ان الرئيس لمزيد حرصه على الودائع وشديد امانته . احجم عن الاقرار بما لديه ولكنه لما رأى ما رأى استحوذ عليه الرعب والخجل معا . فقبض ممدوح على لحيته البيضاء وقال له كيف يسوغ لشيخ مثالك ان ينمم الاكاذيب ويخفي الحقائق . . كأن لممدوح الطاغية حقًّا صريحاً وديناً شرعياً على عباد الله يريد ان ياكله هو . كل وتمتع يامبطان فقد عجلت لك الطيبات في الدنيا واجلت لطامعك العذابات في الاخرى

ثم اخرج ممدوح الرئيس من غرفته ومضى بالاخ فرج الله الى الغرفة الداخلية وبيده قضيب رمان وقال له محملقاً فيه بصره : اعلم يا هذا اني عارف انك خادم الرئيس واقف على جميع اموره . فاطلعني على مطمورة الذهب والا اشبعتك ضرباً واوديت بحياتك . فاكد له فرج الله ان لا معرفة له بما عند الرئيس . فامره ممدوح ان يفتح صندوق الحلل الكهنوتية . فقال من فوره هذه حلل مالويان — قال فرج الله : كلا يا سيدي بل هي حلل عمه المطران متى . واذ

كان يقلب ما في ذلك الصندوق عثر على علبة صغيرة فيها خواتم ثمينة فأخذ خاتماً ادرجه في جيبه حالاً لئلا يراه هرون رفيقه وخرج بالصلبان والخواتم والملاعق الخ ثم انحدر الى الكنيسة وخاض فيها فشاهد عند شخص العذراء حللاً حريرية فقال : لا يجوز لنا ان ناخذ هدية قدمت لمريانا لان ديننا يقضي بان لا نعرّي الكنائس من زينتها — ما انزه نفسك يا ممدوح —

وكان توفيق الانصاري يجول مع ممدوح فقال له اليك هذه السجادات فانها كلها للارمن . قال له ممدوح بما انها خصت بالمسجد حُرّم علينا اخذها واستعمالها — يا سبحان الله كيف يتبدل الانسان ويتقلب !

وبعد هذا طاف ممدوح الغرف جمعاء وتركها مفتوحة واقام حارسين او ان شئت فقل لصين سارقين ليحرسا الدير اي لينهباه . وعاد بالنقود والذهب والرئيس والراهبين يريد مقام السيد جبرائيل الجليل . فاراه ما استحضر وقال له : قلت لك ان عند الرئيس ذهباً ونقوداً كثيرة فلم تصدقني . اليك الصرر . فبهت المطران مما راى واطرق ساكتاً . ثم اندفع ممدوح يقول للمطران مر الرئيس ان يدفع لي ما تبقى عنده من الذهب والودائع والا صلبته في شارع المدينة ليكون عبرة لغيره

فجعل المطران يحادثه بكلام مستعذب ليهدّئ روعه ويخمد اجيج سخطه الى ان قال له بما انك الان قد فزت بمطلوبك فدعه وشانه واطلق رهبانه

قال ممدوح ان اعفو عنه الم يطلعني على كل ما عنده . فسأله

المطران ان يتركه في البطركخانة لديه فلم يرضَ بل قال لـه اني لست أوذيه وسافرج عن رهبانه كرماناً لك

قال هذا ورجع عند الغروب بالرئيس والراهبين الى الحبس وقال لسائر الرهبان اني اطلقت لكم الحرية لتبيتوا ليلتكم خارجاً . وقد اطلعت على ما عند رئيسكم فان اقر بالبقية سرحتكم والا ..

وصباح الغد استُدعي الرئيس تكرارًا الى مقام المتصرف فاضطره ان يستحضر ما تبقى لديه من الودائع والامانات . ثم مضى به ممدوح الى الدير ايضاً وجعل ينقّر وينقّب . وبعد تفتيش كثير عثر على صندوقة مملوءة من اللؤلؤ والذهب والفضة مما تخلّى عنه المؤمنون للعذراء مريم بمثابة نذر او هدية . فاخذ تلك الصندوقة وانقلب راجعاً الى البطركخانة والرئيس معه . وجعل يتهدده في غرفة المطران ويسمعه كلاماً جفياً خشناً ويهدده بالصلب والقتل لسبب خيانته غير المحتملة ?

وعند ذاك اشار السيد جبرائيل الى الرئيس بالخروج . واختلى بممدوح وطفق يستعطفه على الرئيس ورهبانه بعبارات دُبجت بالرق والعذوبة ولكنها لم توثّر في قلبه القاسي . فعمد الحبر النبيل الى معالجة المصلحة بالتوسل والتخضع واستعمال الذرائع لاسترضاء ممدوح وصرفهِ عن خبيث مراده . وبعد اخذ ورد كثير تيسر للحبر الهمام ان يقنعه بخمسمائة ليرة اخرى ذهبية فائض ما اختلس من الذهب والحلى وساعده في ذلك المقدسي حنا هداية اذ كان الطماع يطلب الفي ليرة . وضرب له مهلة ثمانية ايام لا غير . ثم ودّع المطران وترك الرئيس في البطركخانة لخاطره وانصرف الى دار الخواجا نصري

هداية صديقه ليقضي فيها ليلته

ولا يسعنا ان نسكت عما ابداه نصري المذكور والمقدسي حنا نجله الكريم من الغيرة والشهامة في شان اطلاق الرهبان . فان ممدوحاً ضيفهما قدم لنصري قدحاً ليشربه فانكر فالح عليه فما تمالك ان قال له : كيف اشرب الكاس وابن خالتي ملقى في السجن . اني لن اشربها او تعدني الوعد الوثيق باطلاقه واطلاق رهبانه معه . قال له ممدوح كنت اجهل ان الرئيس من انسبائك . بناء على ما قلت اشرب الكاس وكن على يقين اني لن اضيق عليه . غير ان نصري لم يصدقه ولم يشرب الكاس الا بعد ان اقسم براس ابنته القصيفة انه يخلي سبيله

وعند الصباح شخص المقدسي حنا الى غرفة السيد جبرائيل ووافى بعده ممدوح فتفاوضوا في المسئلة كما اشرنا وتمّ الصلح والاتفاق على ان يدفع الرئيس المبلغ المرقوم اعلاه وقدره خمسمائة ليرة عثمانية عين حجر لمرور ثمانية ايام من تاريخه . وغب الدفع يخلّص البوليجة مظهرة بالوصول ويقيدها بالحساب الجاري تحريرا في رابع ايلول ١٩١٥

وقضى الرئيس ليلته تلك في البطركخانة وظل الرهبان في الحبس يبلبل الحفظة افكارهم ويقلقون ضمائرهم ويلفقون لهم انواع الاكاذيب . فقالوا ان الرئيس سيق الى دياربكر ليصلبه رشيد الطاغية وان اراضي الدير باسرها قد حفرت ونبش ما فيها وان الجنود مشغولون بنقل الصناديق من الدير الى غرفة بدري المتصرف الخ الخ

وصباح الخميس ٥ آب اقبل ممدوح الى السجن واستدعى الرهبان

اثنين اثنين وكتب اسماءهم ونصح لهم ان يدعوا للدولة ويخلصوا لها الطاعة والامانة ثم سرحهم الى الدير فقصدوا البطركخانة وشكروا السيد جبرائيل مساعيه واهتمامه في امر نجاتهم من الموت ولما دخلوا كنيسة الدير رنموا تسبيحة الملائكة الطقسية شكرًا للعناية الربانية التي صانتهم من الاعداء . ثم خرجوا الى غرفهم فاذا بالحفظة قد نهبوا ما كان فيها . من جملة ذلك ان حسن بك الضابط ابن الحاج علي بك اختلس كل ما وجد في غرفة القس اسحق معلم الرهبان مما بلغت قيمته نيفاً وخمسين ليرة

ولما عوّل ممدوح على الذهاب الى دياربكر اوفد القس لويس منصوراتي يقول للرئيس ابعث الي بسجادة عجمية شاهدتها في غرفتك فارسلها اليه لخوفه . ثم كتب ممدوح ورقة فحواها انه لم ياخذ شيئاً البتة من الرئيس واوفدها اليه ليوقعها بامضائه فابى فتهدده بالقتل فأمضاها قسرًا . وكلف حبس الرهبان وخروجهم اكثر من الفي ليرة عثمانيه ذهبية فقط لا غيرها

الفصل الثاني والثلاثون

تتبع سوق النساء في شهر آب

قلنا ان اعداء النصرانية كانوا يواصلون الجولان في الدور يجمعون النساء والشيوخ والاولاد ويذهبون بهم الى كنيسة الارمن حتى اذا بلغ عددهم اكثر من مائة استاقوهم الى باب الشكية واركبوهم بعض الحمير والجحاش ومضوا بهم الى راس العين . ففي ٢ و٤ و٦ آب ساقوا ثلاث قوافل بلغ عددها نيفاً وخمسمائة كان في جملتها

اسرة جاندري والقدسي كعيب وسيونجي . وكان سعيد مقدسي كعيب راكباً جحشاً فتعرض له اعداء الخير والدين وابعدوا به عن القافلة وقتلوه قبل وصولهم الى تلّ ارمن واحتووا على اثقاله وافتعلوا مثل ذلك بغيره ايضا ولما وصل البقية الى راس العين اركبوهم القطار الى حلب ووزعوهم في بلاد سوريا وسيروا قسما صالحا منهم الى طفيله وارادوهم على الاسلام فمنهم من اسلم ومنهم من لبث راسخا في ايمانه

وليلة عيد رمضان ١١ آب استاقوا قافلة نسوة واولاد الى جنوبي البلد يريدون ان يضحوا بهم اكراما لعيدهم ولما وصلوا الى بئر قريبة ذبحوهم قاطبة على فمها والقوا جثثهم بها . وافضى اللوم والتوحش بنفر منهم فعذبوا بضع عشر نسوة بالخازوق واوغلوا في التمثيل بهن وتركوا جثثهن جزرًا لوحوش القفر . واتفق ان احد الاكراد خطف من تلك القافلة المدعوة ملكه بنت جبورشدّ وسار بها الى بيته ليركب منها الفاحشة فابت كل الاباءة فتهددها فلم تصغ اليه . وظلت عنده اشهرًا وهو يلحّ عليها في الطلب فوعدته بشيء من الذهب وارسلت الى اهلها بماردين فبعثوا لها بعشرين ليرة دفعتها الكردي ونجت بنفسها وغادرته الى بيتها

ويوم الاحد ١٥ اب ساقوا قافلة اخرى من نسوة وشيوخ واولاد بلغ مجموعهم زهاء اربعمائة من جملتهم ملكي حولوزو وايليا طوبال وابنه جرجس ورزق الله مالو وجرجس تفنكجي وابنا عبد المسيح آدم . ولما وصلوا الى دنيسر انضم اليهم نحو ثمانين امراة وولدًا من تلّ ارمن فباتوا تلك الليلة في محلهم وعند الفجر ساقوهم الى عوينه فألفوا ثم درويش بن خضر افندي مدير تلّ ارمن فانقض عليهم

واختطف اربع نسوة فعارضه مأمور السوق وتهدده فلم يسع درويش الا ان يردهن . فاستاذنوا السير الى بانياس فقرية الامير ووجدوا على الطريق جثث قتلى القوافل السابقة . ثم وصلوا الى راس العين وركبوا القطار الى حلب . وكان في جملتهم جبرائيل خائف صديقنا العزيز

ومذ ذاك اخذ العدد يقل فكان الجنود يجولون كعادتهم في البيوت يفتشون عن المسيحيين في المخابىء ويحشدونهم في كنيسة الارمن الكبرى ويسوقونهم طبقاً بعد طبق

الفصل الثالث والثلاثون

قافلات شهر ايلول

ونختم هذه الحوادث المفجعة بما نقله لنا الفتى النجيب اسكندر كسبو قال يوم الجمعة ١٧ ايلول قُبض عليَّ وعلى شقيقي الياس ومضوا بنا الى الكنيسة واضافونا الى اصحابنا الشيوخ والعجز والعميان والعرج ولفيف النساء والاولاد حتى اناف عددنا على الاربعمائة ويوم الجمعة ٢٤ ايلول وافى عبد القادر القومسير وقال تهيأوا للرحيل الى الموصل ثم نحى فتاتين جميلتين يحاول ان يسير بهما الى بيته فأبتا عليه ذلك فردهما حذر ان يشتهر امره . وفي فجر السبت ٢٥ ايلول اقبل المسمى الحاج الفداوي في اثني عشر جنديا وقوم من العسكر الخمسيني معهم بعض الجحاش للعجز فاستاقونا الى باب الصور فبادر الاكراد ليسلبوا وينهبوا فلم يدعهم القومسير . ولما شارفنا باب البويرة انتصب الحاج الفداوي يقول . ادفعوا لي ما عندكم من الدراهم لانكم عما قليل

تشاهدون شذاذ العرب واعلاج الاكراد ينقضون عليكم ليخطفوا ما عندكم . فان احببتم ان تضنوا بدراهمكم اعطوني اياها فادفعها لكم في الموصل . فسمعنا نصح الفداوي ودفعنا له كل ما كان عندنا من بيضاء وصفراء . واستأنفنا السير الى حيث نجهل وما مشينا القليل حتى باغتنا الاكراد فضربهم الجنود فعادوا ادراجهم . وجعلنا نغذّ في السير فتخلف عنا الشيوخ والمرضى والعجز . فقال لهم الفداوي تربّثوا فاحضر لكم دواب . ثم مضى بهم الى بئر قريبة من البويرة فزجهم فيها وهم احياء وعاد مسرعا . وفي حرين وافى اهل القرية وملأوا لنا ماء فشربنا وقلنا خير ان شاء الله . وعللنا النفوس بالحياة ولما غادرنا القرية شاهدنا اثنين وعشرين جركسياً ممتطين الخيل فقالوا للفداوي ارجع الى البلد ونحن نتعهد بحراسة القافلة (اي بذبحها) فلم يرضَ . فعربدوا عليه فلم يكترث لهم . فجعلوا يستوضحون كلًّا منا عما عنده من الفضة او الذهب فافدناهم اننا دفعناها كلها للحاج فتنازع الشراكسة والجنود وتقارعوا ساعة على المال ثم تراضوا واقبلوا جميعا فاحتفوا بنا

وما سرنا الا القليل حتى امرونا بالعروج الى جهة الغرب يقولون ان قد وردت الاوامر بوجوب ذهابكم الى راس العين فتداخلنا الرعب والارتعاش وقلنا هذه قضية وراها بلية . فمشينا نصف ساعة فكبسنا الاكراد جماهير جماهير حاملين اسلحتهم ومضوا بنا الى تل موسى كوره وهناك بئر جرورة مشهورة . فصاح الحاج . مكانكم . فوقفنا وايقنا بدنو الاجل . فنزلنا عن الدواب فاخذوا الاثقال ودفعوها الى العسكر وامرونا بالجلوس والاكراد ينظرون الينا شزراً ويترصدون